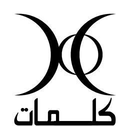

الأدب العالمي للناشئين
مغامرات توم سُويَر
مارك توين

مغامرات توم سُويَر

مغامرات توم سُويَر

تأليف
مارك توين

ترجمة
فايقة جرجس حنا



مغامرات توم سُويَر

مارك توين

The Adventures of Tom Sawyer

Mark Twain

الطبعة الأولى ٢٠١١م
رقم إيداع ٨١٠٣ / ٢٠١١

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ +   **فاكس:** ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

توين، مارك
مغامرات توم سُويَر/بقلم مارك توين (١٨٣٥–١٩١٠) . - القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
تدمك: ٨ ٩١ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١–القصص الأمريكية
أ– العنوان

٨٢٣

الغلاف: رسم شيرين سمير، تصميم سيلفيا فوزي.

المحتويات

الفصل الأول

توم والسور

– «توم»

لا أحد يجيب.

– «يا توم»

لا أحد يجيب.

– «تعال هنا حالًا يا توم سوير»

ضيقت العمة بولي عينيها وهي تدير نظرها في أنحاء غرفة النوم. لقد قلبت المنزل رأسًا على عقب، ولكن ما من أثر للصبي المشاغب. تمتمت عمة توم وهي تحرك المكنسة تحت الفراش: «انتظر حتى أجدك!» لكن دون طائل. وعندما وجدت النافذة مفتوحة أطلت برأسها خارجها، وبحثتْ في الحديقة عن ابن أخيها العنيد، ولكنها لم تر سوى كومة الأخشاب التي لم يقطعها والأعشاب التي لم يجزَّها. وفجأة سمعتْ صوت صرير منخفضًا خلفها، فاستدارت في الوقت المناسب لكي تمسك بالصبي الصغير من ياقة قميصه.

صاحت العمة صيحة انتصار، وقالت: «كنت متأكدة أنني يجب أن ألقي نظرة على الخزانة! ما هذا الذي على فمك؟»

وقف توم سوير أمام عمته، وشفتاه ملطختان باللون الأحمر.

أجاب توم: «لا شيء يا سيدتي.»

– «لا شيء؟ إنها مربى التوت الطازجة التي صنعتُها للسيدة هاربر. وما هذا؟ أخرِج يديك من جيبيك.»

أخرج توم يديه من جيبيه، فإذا بمسحوق أبيض يتساقط على الأرض.

فدست العمة بولي يدها بقوة في جيب توم، وصرختْ في ذهول: «يا إلهي! لا بد أنك تضع كيلوجرامًا من السكر في جيبك!» ثم وضعت يديها على خصرها، ونظرت لابنِ أخيها من أعلى وقالت: «لقد طفح الكيل يا توم سوير!»

وكان اليوم التالي هو يوم السبت، ويا له من يوم صيفي رائع؛ إذ كانت سماء الصباح مشرقة وصافية، والعالم كله ينبض بالحياة. أما توم فقد وقف حزينًا على الرصيف بالخارج، ومعه دلو به طلاء أبيض وفرشاة طويلة اليد. ونظر إلى السور القائم أمام منزل العمة بولي ليجد ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار وطوله نحو نصف طول المنزل، وقد كان عليه أن يطليه كله عقابًا له على ما ارتكبه من أخطاء بالأمس. فغمس الفرشاة في الدلو وهو يتنهد بصوت عالٍ، وبدأ يطلي أحد ألواح السور.

وبعد تحريك الفرشاة لأعلى ولأسفل عدة مرات، جلس توم وأخذ يفكر في كل اللهو الذي كان يخطط له في هذا اليوم، فقد كان يومًا مواتيًا للصيد والشجار وشتى أشكال المغامرات. لكنه عرف أن طلاء السور سوف يستغرق النهار كله، بل والأدهى من ذلك أنه سرعان ما سيأتي بقية الفتية ويرونه وهو يقوم بهذه المهمة الكريهة بينما يكون لديهم هم اليوم بأكمله لينعموا فيه بخوض المغامرات. ولا ريب أنه لم يطق هذه الفكرة، فنهض ببطء وعاد إلى مهمته مرة أخرى؛ يغمس الفرشاة في دلو الطلاء الأبيض ويطلي ألواح السور.

لم تمض على توم خمس دقائق في العمل حتى سمع صوتًا كان يخشى سماعه. إنه صوت صفير، وليس أي صفير، بل صفير غلام خرج في مغامرة شيقة. أدار توم رأسه فرأى بين روجرز يسير في الشارع وهو يقفز في مرح ممسكًا بتفاحة خضراء طازجة.

عاد توم مرة أخرى إلى عمله، وعندها جال بباله خاطر، فوقف منتصبًا وحملق في السور الذي يمتد أمامه في تركيز شديد. انتاب روجرز الفضول بشأن ما يفعله توم، فوقف مباشرة خلف توم الصامت، وكان توم لا يزال يسمع صفيره الذي انقطع وحل محله صوت قضمة كبيرة مليئة بالعصارة عندما قضم روجرز تفاحته. وتظاهر توم بأنه لم ير روجرز البتة وعاود الطلاء مرة أخرى.

أخذ بين روجرز يصفر مرة أخرى، هذه المرة بصوت أعلى، لكن توم استمر في الطلاء.

وأخيرًا قال بين ساخرًا: «هل أنت مضطر للعمل؟»

لم يستدر توم ليجيبه، بل وضع فرشاته في الدلو وعقد ذراعيه على صدره وأخذ يفرك ذقنه بيده وهو يحدق في السور كما لو كان يفكر في لغز عظيم.

سعل بين في محاولة أخرى ليسترعي انتباه توم، وقال: «هل أرغمتك العمة بولي على العمل؟»

استدار توم منبهرًا كما لو كان قد فوجئ بوجود أحد في المكان.

صاح توم: «يا إلهي، بين! لم أشعر بوجودك!»

ابتسم بين قبل أن يقضم قضمة أخرى من تفاحته الشهية، وقال: «أنا متأكد من أنك لم تشعر بوجودي، أنا ذاهب للسباحة في البحيرة، ألا تتمنى لو أنك تستطيع أن تأتي معي؟ أنا على يقين من أنك تؤثر العمل طوال اليوم!»

رمق توم بين بنظرة فاحصة من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، وسأله والحيرة تعلو وجهه: «أي عمل ذاك الذي تتحدث عنه؟»

قال بين وهو يشير إلى فرشاة الطلاء والسور: «أليس هذا عملًا مفروضًا عليك؟»

نظر توم إلى بين نظرة مزدرية أخرى ثم استدار والتقط فرشاته واستمر في الطلاء.

صرخ بين: «لعلك ستخبرني أن طلاء هذا السور يروق لك!»

لم يلتفت إليه توم وقال: «لن تتوفر الفرصة كل يوم لصبي لأن يطلي سورًا بأكمله بمفرده.»

توقف بين في منتصف قضمته لتفاحته وأخذ يشاهد توم وهو يمرر فرشاته في استمتاع شديد فوق السور ويخطو للوراء بعد كل تمريرة أو اثنتين للفرشاة ويراقب ما أنجزه بإعجاب.

– «دعني أجرب هذا يا توم!»

توقف توم والتفت نحو بين في تؤدة وتظاهر بأنه يدرس الفكرة لبرهة.

– «لا، أنا آسف؛ فلا أظن العمة بولي ستوافق على ذلك؛ فلقد أخبرتْني أن ثمة صبيًّا من بين كل ألف صبي هو الأمثل لطلاء هذا السور.»

قال بين مترجيًا: «هيا يا توم! دعني أجرب! مرة واحدة فقط! لو كنت مكانك كنت سأدعك تجرب.»

أخذ توم يفرك ذقنه مرة أخرى، ثم حدق في بين في جدية كما كان يحدق في السور بجدية من قبل.

فصرخ بين: «سوف أعطيك تفاحتي!»

أخذ توم ينعم النظر في الأمر للحظات أطول، وعندئذ أعطى بين روجرز الفرشاة ببطء شديد.

جلس توم — الذي لم يعُد حزينًا — في ظل شجرة والتهم آخر قضمة شهية من التفاحة الخضراء وهو يشاهد بين يطلي السور تحت أشعة الشمس المحرقة. لقد تبين لتوم أنه قد توصَّل إلى شيء رائع: كي تجعل أحدًا يرغب بشدة في شيء ما، فكل ما عليك فعله هو أن تجعل هذا الشيء صعب المنال.

الفصل الثاني

التباهي في مدرسة الأحد

كان توم لا يزال في حالة مزاجية جيدة على الإفطار في صباح اليوم التالي. فبعد أن امتلأت معدته بكم وافر من كعك العمة بولي اللذيذ، كانت فكرة الانتصار الذي حققه على بين روجرز بالأمس لا تزال تسيطر على ذهنه. وفجأة تذكر توم أن اليوم هو يوم الأحد، ويوم الأحد يعني أكثر من مجرد فطور شهي. وعندما أخرجت العمة بولي إنجيلها الذهبي الأوراق وأعلنت أنه حان وقت التفاف العائلة من أجل العبادة، تأوه توم تأوهًا مليئًا بالاكتئاب.

وبعد مرور نصف ساعة من العذاب المضني، استأذن الصبي كي يحفظ آيات مدرسة الأحد.

قال أخوه سيد: «لقد حفظت آياتي الليلة الماضية.» ثم أسرع سيد وعلى وجهه ابتسامة عريضة إلى خارج الباب الأمامي ليلعب ويلهو.

صاحت العمة بولي: «كفاك تضييعًا للوقت يا توم! فسوف تحضر ابنة عمك ماري في أي لحظة.»

سار توم بخطى متثاقلة إلى غرفته ونفخ التراب عن إنجيله الصغير. لقد كان عليه أن يحفظ خمس آيات من الإنجيل، فاختار توم «الموعظة على الجبل» لأنها تحتوى على أقصر خمس آيات يمكن حفظها. وبعد مرور ساعة وهو منكفئ الوجه على الكتاب المقدس، أفاق توم على صوت ماري ابنة عمه.

قالت ماري وعيناها تتراقصان ابتهاجًا، وهي تأخذ الكتاب من ابن عمها: «أراك تكد في الحفظ. فأسمعني ما حفظتَ.»

حشد توم كل طاقاته كي يتذكر ما لم يقرأه.

– «طوبى لـ ... لـ ...»

لقنته ماري: «للمساكين.»

أجابها: «أجل المساكين. طوبى للمساكين بـ ... بـ»

قالت ماري: «بالروح.» وهكذا سار الأمر على هذا المنوال؛ توم يتلجلج في الآيات وماري تذكِّره بلطف. وبعد مرور ساعة بطيئة وشاقة، أعلنت ماري أنه قد حان الوقت لأن يرتدي توم ملابسه للذهاب إلى مدرسة الأحد.

تأوه توم مرة أخرى، وكان تأوهه هذه المرة أشد من سابقتها؛ وإذ كانت ماري تساعده في ارتداء سترة يوم الأحد، أخذت تزرر له قميصه من أعلى وتربط له رابطة العنق بإحكام؛ فعبس وجه توم جدًّا إذ كان يشعر بضيق شديد كما بدا عليه؛ فلقد أخذت ماري تصفف له شعره، ثم وضعت على رأسه قبعة منقطة مصنوعة من القش. دمدم توم بغضب في وجه سيد الذي جاء من بعد اللعب بالخارج ضاحكًا من مظهره. فلم يكن توم يكره شيئًا في حياته أكثر من كرهه مدرسة الأحد.

وعلى النقيض، كانت ماري تعشق الذهاب إلى مدرسة الأحد، بل ولقد حازت على بعض الجوائز هناك أيضًا. فقد كان كل من يستطيع أن يتلو آيتين من الإنجيل عن ظهر قلب يحصل على بطاقة زرقاء من معلم مدرسة الأحد، الطويل القامة، النحيل الجسم، الأشقر الشعر، ذي الصوت المجلجل الأجش، الذي يدعى والترز. وكانت كل عشْر بطاقات زرقاء تساوي بطاقة حمراء، وكل عشر بطاقات حمراء تساوي بطاقة صفراء. وعندما تحوز على عشر بطاقات صفراء ستكون عندئذ الفائز المتشرف بنسخة من الكتاب المقدس، مجلدة تجليدًا بسيطًا. بيد أن حفظ ألفي آية من الكتاب المقدس كان ثمنًا غاليًا للغاية ولا يقدر توم على أن يدفعه مقابل مثل هذه الجائزة. لكن ماري حازت على نسختين من الكتاب المقدس، كما أثبت غلام ألماني الأصل جدارته بأربعة أو خمسة كتب مقدسة! وبرغم أن هذه الجائزة لم تكن ذات فائدة بالنسبة لتوم، فإنه كان يتطلع إلى المجد الذي يصاحب الحصول عليها. فعلى كل حال، الحصول على الأناجيل أمر نادر الحدوث ولافت للانتباه.

سطعت الشمس سطوعًا شديدًا في هذا اليوم عندما كان توم يسير خلف ماري وسيد على الطريق المليء بالأتربة إلى مدرسة الأحد. وعند باب الكنيسة رأى توم بيلي، أحد أصدقائه الآخرين، الذين كانوا يُجبرون مثله على ارتداء سترة يوم الأحد البهية. وفجأة خطرت فكرة ببال توم.

قال توم: «بيلي، هل حصلتَ على بطاقة صفراء؟»

أجاب بيلي: «أجل.»

– «ماذا تأخذ في مقابلها؟»

– «ماذا لديك؟»

– «قطعة من الحلوى وخطاف سنارة.»

– «دعني أراهما.»

جرى فحص البضائع وتمت الصفقة. وكان بحوزة توم كومة من مثل هذا الكنز في جيوبه ولم يمض وقت طويل حتى كان قد قايضها كلها ببطاقات صفراء وحمراء بل وزرقاء أيضًا. وعندما دق ناقوس الكنيسة أخيرًا، كان جيب توم محشوًّا بالبطاقات.

وكان فصل مدرسة الأحد، المسئول عنه المعلم والترز، يعج بزمرة من الأطفال المشاغبين الذين لا يهدءون ولا يكلُّون ويثيرون جلبة شديدة، وكان توم أسوأهم جميعًا؛ فقد حرص على أن يشد شعر أول غلام رآه، على الرغم من أن السيد والترز عنفه ووبخه على الفور، ولكن ما إن استدار السيد والترز حتى وخز توم الغلام الذي يجلس أمامه بدبوس.

صرخ الغلام من الألم: «آه! فصرخ السيد والترز في توم مرة أخرى.»

سكن توم وبقية الأطفال أخيرًا، فأنصت السيد والترز في طول أناة إلى الأطفال وهم يتلجلجون في تلاوة ما حفظوه من آياتهم الكتابية. وبعد أن انتهى الجميع من تلاوة الآيات، تحدث السيد والترز فقال: «والآن يا صغار، أريدكم جميعًا أن تجلسوا في اعتدال ولطف قدر استطاعتكم وأن تعيروني انتباهكم!»

وكان توم كلما حاول أن ينصت لما يقوله المعلم عن عائلة ما جديدة جاءت لتقطن في المدينة، ثقلت عيناه وشعر بالنعاس. وعندما استطاع أخيرًا أن يفتح عينيه، رأى الجميع يحدقون وراءهم في رجل بدين في منتصف العمر ذي شعر داكن ويرتدي نظارة ومعه سيدة وقور أنيقة الملابس. وعلى الرغم من منظرهما المهيب، فلم يجذب نظر توم سوى ابنتهما الصغيرة.

كانت الفتاة جميلة ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر مضفر في ضفيرتين طويلتين. وما إن وقعت عينا توم على وجهها حتى أخذ يشاغب مرة أخرى ويشد شعر رفقائه ويغير من تعبيرات وجهه — باختصار، حاول أن يفعل كل ما في وسعه كي يلفت نظرها.

وبعد أن أسكت السيد ولترز التلاميذ في الفصل مرة أخرى، عرّف الضيوف وأجلسهم في مقدمة الفصل. واتضح أن الرجل البدين هو القاضي ثاتشر، أكبر قاضٍ في المقاطعة، واسم ابنته هو بيكي. وبدأ بقية الأطفال يحاولون لفت الانتباه أيضًا بسبب توم إلى حد ما. وأخذ السيد والترز يعطي أوامره بصوت مرتفع ويُولي اهتمامه بالأطفال الذين يتعثرون في قراءتهم، ويشير بإصبعه لأولئك الذين يسيئون التصرف. تشاجر التلاميذ وتعاركوا وأخذ البعض يكورون الورق ويلقونه في الهواء. وفي تلك الأثناء، ارتسمت على وجه القاضي ثاتشر العظيم ابتسامة مهيبة بينما كان يشرف على الفصل الذي يعج بالضوضاء.

أما بالنسبة للسيد والترز، فقد كان يرجو شيئًا واحدًا، وهو أن يسلم إحدى جوائز حفظ الآيات الكتابية ويقدِّم واحدًا من أفضل تلاميذه إلى القاضي ثاتشر. لذا، أخذ والترز يتفقد مع كل تلاميذه المتميزين البطاقات التي بحوزتهم، فلم يجد بحوزة أحدٍ منهم أكثر من مجرد بضعة بطاقات صفراء، وأوشك السيد والترز أن يفقد الأمل عندما تقدم توم سوير — دون سائر التلاميذ! — حاملًا بيده تسع بطاقات صفراء وتسع بطاقات حمراء وعشر بطاقات زرقاء. وهنا شحب وجه المعلم والترز إذ لم يكن يتوقع أن يرى بحوزة توم، ولا حتى بعد عشر سنوات أخرى على الأقل، أيًّا من هذه البطاقات. فأخذ يهز رأسه في استنكار وهو يعد البطاقات مرة بعد مرة في حين ظل توم يبتسم ابتسامة عريضة.

وهكذا أصبح توم سوير موضع حسد كل من بالفصل؛ فأخذ بقية التلاميذ ينظرون إليه في حقد مرير، ولا سيما أولئك الذين أدركوا بعد فوات الأوان ما الذي فعلوه عندما قايضوا معه البطاقات. ولم يستطع توم أن يمتنع عن التمتع بمجد تلك اللحظة عندما صافحه السيد والترز بحرارة.

نظرت بيكي ثاتشر إلى توم بشيء من الاهتمام، لكن توم لم يجرؤ على النظر تجاهها؛ فهو لا يستطيع أن يتحمل ذلك. وعندما قُدِّم إلى القاضي ثاتشر، اضطرب بشدة حتى إن لسانه انعقد وأخذ قلبه يخفق بشدة. فوضع القاضي يده على رأس توم وأخذ يمسح على شعره برفق وسأله عن اسمه.

– «تـ ... توم. توماس.»

حثه السيد والترز قائلًا: «أخبر سيادته باسم العائلة.» ثم بدا السيد والترز نفسه مرتبكًا بعض الشيء وقال: «والتزم بحسن السلوك.»

أجاب توم: «توماس سوير يا سيدي.»

قال القاضي في إعجاب: «عظيم! هذا ولد صالح. حفظتَ ألفي آية، يا للهول! يا له من رقم هائل! إن المعرفة هي التي تصنع العظماء والصالحين. ستصير رجلًا عظيمًا يا توماس، ويومًا ما ستقول: يرجع الفضل في كل هذا إلى المزايا التي منحتْني إياها مدرسة الأحد المفيدة إبان طفولتي. وستسعد لأنك أمضيت وقتك في تعلم الألفي آية تلك ولن تندم قط على هذا.» ثم ضم الرجل العظيم يديه معًا في حماس، وقال: «والآن، بالطبع لن تمانع في أن تشاركنا بعضًا مما لديك من معرفة، أليس كذلك؟ بلا ريب تعرف أسماء التلاميذ الاثني عشر للمسيح، هل تمانع في أن تخبرنا باسم اثنين منهم؟»

أخذ السيد والترز يعدّل ياقة قميصه وبدأ يتصبب عرقًا وهو يحملق في توم الذي كان صامتًا مرتبكًا. وسأل السيد والترز نفسه: «هل هذا معقول؟ هل يُعقل ألا يستطيع هذا الصبي أن يجيب عن أبسط الأسئلة؟!»

كان توم المسكين يتجاذب عروة قميصه في الوقت الذي كان يتصارع فيه ذهنه بضراوة في محاولة يائسة لاسترجاع الأسماء الصحيحة بأي طريقة ممكنة.

قال السيد والترز آملًا: «أجب سيادته، لا تخف!»

استحث القاضي توم، وقد علا وجهه شيء من العبوس هذه المرة: «هيا يا توماس، ما اسم أول تلميذين؟»

أجاب توم: «داود وجليات!»

وعندئذٍ ركض توم خارجًا من الفصل بينما انفجر بقية رفقائه ضاحكين.

الفصل الثالث

توم يلتقي بيكي

لطالما كان صباح يوم الاثنين باعثًا على الاكتئاب في نفس توم. فبحلول صباح الاثنين يبدأ أسبوع آخر من المعاناة في المدرسة يمر عليه كما لو كان دهرًا. جلس توم في فراشه، في الصباح الباكر، يفكر في شرور المدرسة وكيف يمكنه أن يتخلص منها! وتحسس رأسه، وتمنى أن لو كانت ساخنة، لكنها لم تكن كذلك للأسف، ثم تفقد جسده متمنيًا أن يكتشف أعراضًا لأي مرض مزعج، لكن ما من عرَض. وما إن أدرك أنه يتمتع بوافر الصحة حتى شعر بالإحباط أكثر من ذي قبل.

وبعد قليل كان توم في طريقه إلى المدرسة، وكالمعتاد كان محبطًا، ثم التقى هاكلبيري فين.

وكان هاك فين، ابن أحد رجال البلدة المثيرين للمتاعب، تَكرهه وتخافه كل أمهات القرية، ولكن أطفالهن كانوا يحبونه ويحسدونه؛ إذ كان يروح ويجيء بملء حريته ولم يُجبر قط على الذهاب إلى الكنيسة ولا المدرسة. كما كان بمقدوره أن يذهب لصيد السمك أو السباحة وقتما شاء، بل وكان يسهر إلى وقت متأخر من الليل كما يحلو له. وكان هاك شتّامًا، ومن ثم كان توم سوير، شأنه في ذلك شأن سائر الصبْية، ممنوعًا عن اللعب معه. لذا لم يكن من المستغرب أن يلعب توم مع هاك فين كلما سنحت الفرصة.

– «مرحبًا يا هاك!»

– «مرحبًا بك يا توم.»

– «تُرى ما الذي بداخل هذه الحقيبة؟»

– «عقار طبي.»

– «يا إلهي! إن رائحته كريهة؛ فما هي مكوناته؟»

– «شوارب سمك القرموط، وورق نبات البرسيم رباعي الوريقات، وبيض بوم، وأشياء أخرى.»

– «وما هي هذه الأشياء الأخرى؟»

– «هذا ليس من شأنك.»

– «وفيم تستخدم هذه الأشياء يا هاك؟»

– «فيم تستخدم؟ إنها تعالج الثآليل إذا استخدمتها على نحو صحيح!»

– «وكيف تستخدمها لعلاج الثآليل؟»

– «حسنًا، هذا أمر غاية في البساطة. خذ الدواء واذهب إلى المدافن في منتصف الليل. فهذا موعد حضور الأرواح الشريرة، وربما تحضر روحان أو ثلاث، وهم يأتون عادة كي يأخذوا روح أحد الموتى الأشرار. وعندما يأخذون روح هذا الشرير، تقوم أنت بإلقاء الحقيبة التي بداخلها الدواء وراءهم. وعندئذٍ تقول: الروح الشريرة تتبع الجثة، والدواء يتبع الروح الشريرة، والثآليل تتبع الدواء! لا مزيد من الثآليل!»

– «وهل جربت هذا من قبل؟»

– «لا.»

– «ومتى ستفعل هذا؟»

– «الليلة، أظن أن الأرواح الشريرة ستحضر الليلة لتأخذ روح العجوز هوس ويليامز.»

– «لكنهم دفنوه يوم السبت، ألم يأخذوا روحه في تلك الليلة؟!»

– «ما هذا الذي تقوله! كيف يجيئون في منتصف الليل؟ ومنتصف الليل يعني حلول يوم الأحد والأرواح الشريرة لا تجول كثيرًا في يوم الأحد؟! لا أظن ذلك.»

– «لم يخطر هذا ببالي قط!» ثم أخذ توم يتوسل إليه قائلًا: «دعني أذهب معك.»

رد هاك: «بالطبع.» ثم أخذ يحدق في توم واسترسل قائلًا: «هذا باعتبار أنك لست خائفًا.»

رد توم في عجلة: «لا، أنا لست خائفًا البتة!» ثم همس إلى هاك في هدوء: «وهل ستطلعني على بقية مكونات الدواء؟»

– «سأفعل إذا أثبتَّ لي أنك لا تخاف.»

– «أنا لا أخشى أي شيء يا هاك.»

– «سوف نتحقق من هذا.»
– «حسنًا، سترى.»

مضى الصبيَّان قُدمًا في حديثهما على هذا النحو بعض الوقت حتى تذكر توم أنه مضطر إلى أن يذهب إلى المدرسة. وقبل أن يرحل أخذ يذكِّر هاكلبيري فين مرة أخرى بألا ينسى أن يأتي ليصطحبه معه هذه الليلة.

عندما دخل توم الفصل أخيرًا، كان معلمه، السيد دوبينز، غافلًا ساهيًا في مقدمة الفصل؛ لذا جلس توم في مقعده متمنيًا ألا يلحظه أحد.

لكن للأسف لم يحدث هذا.

– «توماس سوير!»

وكان توم كلما سمع أحدًا ينطق اسمه كاملًا، أدرك أن ثمة مشكلة تحلق في الأجواء.

– «تعال هنا يا توماس! والآن يا سيد توماس، هل لك أن تفسر لنا سبب تأخرك مرة أخرى؟!»

كان توم يفكر في اختلاق أكذوبة محكمة التلفيق فريدة في نوعها وهو يسير نحو مقدمة الفصل ببطء شديد. وعندئذ وقعت عيناه على ذلك الشعر الأصفر الطويل المنسدل؛ فأدرك أن ابنة ثاتشر تجلس في جانب الفتيات وبجانبها أحد المقاعد الفارغة. وفي لمح البصر عرف ما الذي سيقوله.

قال توم بصوت مرتفع: «لقد توقفتُ كي أتحدث إلى هاكلبيري فين!»

عند ذلك اتجهت جميع الأنظار إلى توم سوير، وتساءل زملاؤه في الفصل: «هل فقد صوابه؟!»

قال السيد دوبينز وهو لا يصدق ما قد تناهى إلى مسامعه: «ماذا قلت؟»

أجابه توم ببطء كي يتمكن الجميع من سماعه بوضوح: «لقد توقفت كي أتحدث إلى هاكلبيري فين.»

– «توماس سوير، هذا أغرب اعتراف سمعته، اخلع معطفك يا فتى!»

أخرج دوبينز عصاه، فمدّ توم ذراعه في شجاعة كي ينال عقابه.

فدوَّى صوت بضع ضربات قوية في الهواء، وكان توم يأخذه الفزع مع كل ضربة منها إلى أن تعب المعلم أخيرًا، فأنزل عصاه.

قال المعلم في صرامة: «والآن يا سيد، اذهب واجلس مع الفتيات، وليكن هذا إنذارًا لك.»

جلس توم عند طرف المقعد المتاخم للفتاة ذات الضفائر الشقراء الطوال. وبعد قليل انتشرتِ الوكزات والغمزات والهمسات في كل أنحاء الفصل. وبينما جلس توم هادئًا على نحو مثالي واضعًا ذراعيه على المكتب الطويل المنخفض، تظاهر بأنه يمعن في قراءة كتابه. وبالرغم من أن وجهه بدا جامدًا خاليًا من التعبيرات، فقد كان قلبه يرقص فرحًا بداخله.

أخيرًا عاد التلاميذ للانشغال بمهامهم الدراسية، وعاد المعلم إلى غفلته، فاغتنم توم الفرصة، واسترق النظر إلى الفتاة الجميلة بجانبه، لكن بيكي تجهمت في وجهه قبل أن تدير رأسها بعيدًا. وعندما أعادت رأسها بحذر مرة أخرى، رأت خوخة طازجة على مكتبها، فأسرعت في إبعادها عنها. فأرجعها توم بلطف إلى مكانها، فدفعتها بعيدًا مرة أخرى، فأعادها توم مرة أخرى بلطف أيضًا. فتركتها في مكانها هذه المرة، في حين أخذ توم يكتب على ورقته: «من فضلك خذيها، لقد حصلت على كفايتي منه.» قرأت بيكي الرسالة، لكنها لم تقل شيئًا. وعندئذ أخذ توم يرسم شيئًا آخر على ورقته مخبئًا إياه بذراعه الأيسر، فتظاهرت بيكي بأنها لا تلاحظ ما يرسمه توم، لكن سرعان ما غلبها فضولها، فاجتهدت لكي ترى ما يفعله. لكن توم تظاهر بأنه لا يراها البتة، وأخيرًا همست بيكي: «دعني أراه.»

أظهر توم رسمه جزئيًا، فكان رسمًا لبيت بسيط تخرج منه سحابة مستديرة من الدخان الذي يتطاير من مدخنة.

قالت بيكي: «هذا رسم رائع. هل يمكنك أن ترسم رجلًا؟»

فرسم توم رجلًا يقف في الفناء الأمامي للمنزل. كان رجلًا ضخمًا بما يكفي لأن يقفز فوق المنزل دون عناء، لكن الفتاة لم تعلق على ذلك.

قالت بيكي: «رجل أنيق جدًّا. والآن هل يمكنك أن ترسم فتاة مثلي في هذا المشهد؟»

رسم توم فتاة ملفوفة القوام ومستديرة الرأس تمامًا كالقمر وذات ذراعين نحيفتين.

قالت بيكي: «شيء لطيف للغاية! أتمنى لو كنت أستطيع الرسم!»

همس توم: «الرسم سهل جدًّا، سأعلمك.»

– «حقًّا؟ متى؟»

– «في وقت الظهيرة، هل تذهبين إلى البيت لتناول الغداء؟»

– «سأمكث إذا أردتني أن أمكث يا توماس سوير.»

– «لا أسمع اسمي كاملًا هكذا إلا عندما تحدث مشكلة؛ لذلك يمكنك أن تناديني بتوم، اتفقنا؟»

– «نعم.»

ابتسم توم ثم انغمس في العمل مرة أخرى مخبئًا ورقته بيده وكتب شيئًا عليها وجعله محجوبًا عن النظر. فتوسلت بيكي إليه مرة أخرى أن يريها ما كتبه.

فتمتم توم: «آه، لا شيء.»

– «بل كتبتَ شيئًا ما.»

– «لن يروق لك أن تريه.»

– «لا، بل أحب أن أراه، من فضلك دعني أراه!»

– «هل أنت واثقة من ذلك؟»

– «نعم.»

قال توم في خجل شديد: «آه، لن يروق لك أن تريه.»

تبعت هذا الرد مشاجرة صغيرة، فقد وضعت بيكي يدها على ورقة توم وحاولت أن تشدها منه. فتظاهر توم بأنه يقاومها، لكنه تركها أخيرًا تسحب يده بعيدًا عند الورقة التي كان مكتوبًا عليها الكلمات التالية: «أحبك.»

قالت بيكي وهي تضربه بحدة على يده: «يا لوقاحتك!»

ومع ذلك، فقد أدرك توم من خلال وجهها أنها كانت سعيدة.

وعندئذ شعر توم على حين غرة بقبضة محكمة على أذنه، ولم يشعر بنفسه بعدها إلا والسيد دوبينز يرفعه عن مقعده ويجره عبر الحجرة قبل أن يطرحه بطريقة مهينة في مقعده المعتاد في قسم الأولاد، وهنا انفجر كل الفصل في نوبة شديدة من الضحك والقهقهة من هذا المشهد. ومع أن توم كان يشعر بوخز مؤلم في أذنه، فإن قلبه كان مملوءًا فرحًا.

الفصل الرابع

انكسار القلب يأتي سريعًا

كانت الشمس ساطعة خارج الفصل وبدا الهواء منعشًا، أمَّا بداخله فلم تكن هناك نسمة واحدة. ورأى توم عصفورين أزرقين يحلِّقان في السماء في هدوء؛ فتفاءل واستبشر أنه لن يعيش وحيدًا ثانية، ثم نظر إلى بيكي التي كانت منهمكة في دراستها، فرآها أجمل من إيمي لورانس التي كان يتودد إليها من قبل في المدرسة. وعندما حلّ وقت الظهيرة أخيرًا، تدفق التلاميذ خارج المبنى المدرسي الصغير، مسرعين إلى منازلهم لتناول الغداء. وعندما نهضت بيكي من مقعدها، همس توم في أذنها: «اخرجي معهم وعندما تَصلين إلى الزاوية، تسللي من بينهم وانعطفي عبر الممر وعودي إلى هنا مرة أخرى كي نلتقي.»

وبعد قليل، عادا إلى المدرسة التي أصبحت خالية. فجلسا معًا وأمامهما ورقة بيضاء وأعطاها توم قلمه الرصاص وأمسك بيدها وهو يرشدها في الرسم، وبعد قليل ظهر منزل آخر على الورقة؛ فابتسمت بيكي له.

سألها توم بعدما انزوى شغفها بالرسم: «هل تحبين الفئران؟»

– «لا، أكرهها بشدة!»

– «حسنًا، أنا أيضًا أكرهها — الأحياء منها. لكنني أتحدث عن الفئران الميتة.»

– «لا، لا أبالي بأمر الفئران، لكن ما أحبه بشدة هو مضغ العلك.»

– «وأنا أيضًا. أتمنى لو كان معي بعضها الآن!»

– «أنا معي بعضها.»

وهكذا جلس توم وبيكي في هدوء يمضغان العلك لبعض الوقت، وهما يدليان أرجلهما من المقعد.

سألها توم: «هل سبق لك أن ذهبتِ إلى السيرك؟»

– «أجل، وقد وعدني أبي أن يصطحبني إلى هناك مرة أخرى، إذا أحسنتُ السلوك.»

– «لقد ذهبتُ إلى السيرك ثلاث أو أربع مرات وأنوي أن أصير مهرجًا في السيرك عندما أكبر.»

– «سيكون هذا لطيفًا، فالمهرجون منظرهم رائع جدًّا؛ إذ يرتدون ملابس مليئة بالرقع الملونة.»

– «كما يحصلون على مال وفير — فقد سمعت أن أجر الواحد منهم قد يصل إلى دولار في اليوم.»

أخذ توم عندئذ نفسًا عميقًا: «أخبريني يا بيكي، هل سبق لك وأن خُطبتِ لأحد؟»

– «لا.»

– «وهل تحبين ذلك؟»

– «لا أعرف. وما هي الخطبة؟»

– «ما الخطبة؟ لا شيء. كل ما عليكِ هو أن تخبري أحد الصبْيان بأنكِ لا تحبين أحدًا غيره أبدًا أبدًا، وعندئذ تقبِّلينه، هذا كل ما في الأمر. يمكن لأي شخص أن يفعل هذا.»

– «ولماذا القبلة؟»

– «لأن هذا ما يفعله الجميع؟ هل تتذكرين ما كتبته لك على الورقة؟»

– «أجل.»

– «وماذا كان ذلك؟»

– «لن أخبرك.»

قال توم: «سأخبرك أنا» ثم وضع يده على خصر بيكي وهمس في أذنها قائلًا: «أنا أحبك.»

– «والآن حان دورك — عليك أن تهمسي في أذني بالطريقة نفسها.»

ترددت بيكي للحظة. فأدار توم وجهه بعيدًا، فمالت بيكي في خجل وهمست في أذنه همسًا خافتًا: «وأنا ... أحبـ ... ك.»

وعندئذ هبت من مكانها وجرت من حول الطاولات والمقاعد إلى زاوية الفصل حيث خبأت وجهها بين ذراعيها.

قال توم محاولًا أن يهدِّئ من روعها: «بيكي، لقد انتهى كل شيء، انتهى كل شيء فيما عدا القُبلة، ولا يجب أن تخافي من هذا.»

ظلت بيكي هكذا لبعض الوقت، تدفن وجهها بين ذراعيها قبالة الجدار. وظل توم يتحدث محاولًا أن يقنعها بفضائل القُبلة، إلى أن استدارت وأنزلت ذراعيها، فقبَّلها توم برفق.

– «والآن انتهى الأمر، ولا يجب أن تحبي أحدًا غيري يا بيكي، كما يجب ألا تتزوجي من أحد غيري أيضًا.»

– «لن أحب أحدًا غيرك أبدًا يا توم، وأنت أيضًا يجب ألا تحب أحدًا غيري.»

– «نعم بالطبع، وهذا ليس كل شيء؛ بل عندما نسير إلى المدرسة أو نلعب في الحفلات، سنكون معًا على الدوام.»

– «هذا لشيء لطيف، لم أسمع عن شيء كهذا من قبل!»

– «إنه أمر رائع! لقد كنا أنا وإيمي لورانس …»

امتنع توم عن الكلام عندما أدرك في الحال الخطأ الذي وقع فيه.

– «توم، أنا لست أول واحدة تعقد خطبتك عليها؟!»

بدأت بيكي تبكي.

أخذ توم يتوسل إليها: «لا يا بيكي، لا تبكي. أنا لم أعد أهتم بإيمي لورانس.»

لكن بيكي استمرت في البكاء وحاول توم أن يضع يده حول رقبتها، لكنها دفعته بعيدًا. وتألم توم بشدة من رؤيتها تبكي، فوقف منزعجًا لا يعرف ماذا يفعل أو يقول.

– «بيكي، أنا لا أهتم بأحد سواك.»

ظلت بيكي لا ترد عليه، وإنما تبكي فحسب.

– «بيكي، ألن تجيبيني؟»

لم يَلقَ أي رد سوى المزيد من البكاء، فوضع يده في جيبه وأخرج أثمن مقتنياته — نجمًا نحاسيًّا لامعًا — كان قد حصل عليه من قمة أحد الأسوار.

– «من فضلك يا بيكي، ألن تأخذيه؟»

رمته بيكي في غضب إلى الأرض. فكانت رميتها نهاية الأمر بالنسبة إلى توم.

شعر توم بالغضب الشديد والحزن أيضًا، فسار إلى خارج المدرسة وأخذ يركض. أخذ يعدو أكثر فأكثر حتى وصل تل كارديف، وتجاوزه، ثم قصر دوجلاس،

وتجاوزه أيضًا. ظل يعدو إلى أن اختفى مبنى المدرسة عن النظر، وعندئذ جلس لوقت طويل واضعًا مرفقيه على ركبتيه ومسنِدًا ذقنه إلى يديه. ما الذي فعله؟ أخذ توم يفكر ويفكر. لقد كان يقصد خيرًا، وقد عُومل معاملة الكلاب، الكلاب! ماذا لو تركها الآن واختفى تمامًا؟ هل ستشعر بيكي بالأسف من أجله!

وهنا خطرت بذهنه فكرة؛ سيصبح قرصانًا، إنها المغامرة التي طالما كان يحلم بها منذ أمد بعيد. يا لروعة أن يبحر عبر البحار الهائجة بسفينة سوداء فخمة، يرفرف في صاريها علم القراصنة. وبعد أن يذيع صيته بسبب أعماله الجسورة، سيعود إلى مدينته القديمة الهادئة سانت بيترسبرج بميسوري، ويسير صوب الكنيسة مرتديًا حذاءه الأسود الطويل ووشاحه الأحمر وسيفه ومسدساته مثبتة في حزامه. وعندئذ سينظر إليه الجميع، بمن فيهم بيكي، ويتهامسون فيما بينهم: «هذا توم سوير القرصان الشهير! أشجع رجل أبحر بسفينة!»

لقد تقرر مستقبل توم، فوثب على قدميه وركض عبر الغابة متصورًا حياته الجديدة الرائعة في أعالي البحار.

الفصل الخامس

مأساة عند المدافن

كان لا بد من إرجاء مغامرات توم القرصان في أعالي البحار لبعض الوقت؛ إذ كان مضطرًا إلى أن يلتقي هاك فين في هذه الليلة. وبعد حلول الظلام، بذل توم قصارى جهده كي يظل متيقظًا في فراشه حتى لا يوقظ أخاه سيد ويثير شكوكه. لذا ظل مفتحًا عينيه يحدق في النافذة المظلمة. كانت الليلة هادئة، إلا ما تنامى إلى سمعه من صرير الألواح الخشبية في السقف المائل إلى صرير صراصير الليل بالخارج. وفجأة سمع صوت نباح كلب على مسافة بعيدة، أعقبه صوت ارتطام عالٍ لانكسار زجاج في مخزن حطب العمة بولي، وعندئذ سمع صوتًا عاليًا يصرخ: «ابتعد أيها الوغد!»

بعد دقيقة كان توم قد ارتدى ملابسه واتجه نحو النافذة التي نزل منها إلى الحديقة حيث كان هاك فين بانتظاره. وبعد مرور نصف ساعة، كان الصبيَّان يشقان طريقهما عبر الأعشاب الطويلة الموجودة عند المدافن.

كانت المدافن تقع على تل ومحاطة بسور قديم متهدم يتجه في أجزاء منه نحو الداخل وفي أجزاء أخرى إلى الخارج، وفي كل الاتجاهات ما عدا الاتجاه المستقيم. وكانت الأعشاب الضارية والميتة تكسو جميع القبور. حفَّت ريح خافتة وسط أغصان الأشجار؛ وكان توم على يقين من أن هذا إنما هو صوت الأموات المتبرمين بإزعاجهم. خطا الصبيَّان بحذر نحو كومة الحجارة الجديدة التي تميز قبر هوس ويليامز، وكانت هناك ثلاث أشجار دردار ضخمة متشابكة بالقرب من القبر، فوقف الصبيَّان وراءها.

لم يحدث شيء لوقت طويل، ولمّا طال الصمت، أخذ الخوف يتملك من توم أكثر فأكثر.

قال هاك فين: «إن هذا الهدوء لمريع يا توم!»

– «بل إنه مريع جدًّا!»

ساد الصمت الطويل، وأخيرًا همس توم مرة أخرى: «هل تظن أن هوس ويليامز يستطيع أن يسمعنا ونحن نتحدث؟»

أجاب هاك: «بالطبع يستطيع، أو على الأقل روحه تستطيع.»

انزوى الحوار مرة أخرى؛ إذ لم يجرؤ توم على التكلم؛ فقد كان يتساءل: «هل يستطيع شبح هوس ويليامز أن يسمعهما؟ وهل يمكن أن يسيء الظن بهما؟» وفجأة وثب توم مذعورًا ممسكًا بذراع هاك، وقال: «أنصت!»

– «ما الأمر يا توم؟»

تشبث الصبيَّان أحدهما بالآخر، وقلباهما يخفقان على نحو عنيف.

– «أنصت! ها هو الصوت يعود مجددًا!»

– «إنهم قادمون يا توم، بالتأكيد الأرواح قادمة. ماذا نفعل؟»

– «لا أعرف، هل سيروننا؟»

– «بالطبع يا توم، إن بمقدورهم أن يروا في الظلام، تمامًا مثل القطط. ليتنا ما جئنا إلى هنا!»

– «لا تخف يا هاك؛ فإننا إذا تمكنَّا من أن نظل في مكاننا بلا حراك تمامًا، فربما لا يلاحظوننا على الإطلاق.»

جلس الصبيَّان في صمت، وقلما تجرآ على أن يتنفسا. وصل ثلاثة أشخاص غريبو المظهر، أحدهم يتدلى من يده قنديل معدني عتيق الطراز وكانت تنعكس منه البقع الضوئية على الأرض.

همس هاك: «لا بد من أن هذه هي الأرواح الشريرة. لقد هلكنا لا محالة!»

أخذ توم يصلي متضرعًا إلى ربه: «اللهم احفظ روحي ...»

– «أنصت!»

– «ما الأمر يا هاك؟»

– «هذا صوت ماف بوتر؛ إنهم بشر!»

– «غير معقول!»

– «لكن هذه هي الحقيقة. ابق مكانك، إنه منهمك للغاية؛ فلن يلاحظنا.»

– «هاك، إن هناك صوتًا آخر من هذه الأصوات مألوف لدي، إنه صوت إنجون جو!»

التزم الصبيَّان الصمت مرة أخرى عندما بلغ الزائرون الغامضون القبر ووقفوا على بُعد أقدام معدودة من الأشجار التي يختبئ توم وهاك وراءها.

قال صاحب الصوت الثالث الذي كان ممسكًا بقنديله: «ها هي المقبرة.»، وتبين أنه الطبيب الشاب روبينسون.

وكان ماف بوتر وإنجون جو يجران عربة يد بها جاروفان وحبل. وبعد أن أنزلا حمولتهما، بدآ في فتح قبر هوس ويليامز ووضع الطبيب القنديل عند رأس القبر ثم اتكأ على إحدى أشجار الدردار قريبًا جدًّا من الصبيَّين، حتى إنهما كانا يستطيعان أن يلمساه.

قال الطبيب بصوت منخفض: «أسرِعا، فقد أوشك القمر على الظهور.»

تأفف الرجلان الآخران وواصلا الحفر واستمع توم وهاك إلى الصوت المزعج الصادر عن ارتطام الجاروفين بالتربة والحصى.

سأل توم هاك بصوت خافت جدًّا: «ماذا يفعلون؟»

رد هاك بصوت واهن مرتجف: «ينـ ... ينبشون القبر. يستخدم الأطباء أحيانًا الجثث لإجراء التجارب عليها وأشياء من هذا القبيل، لكن لا يليق بهم أن يفعلوا هذا.»

أخيرًا سمع الصبيَّان صوتًا مختلفًا عندما ارتطم الجاروفان بالنعش الخشبي. وعندئذ استخدم ماف بوتر وإنجون جو الحبل لسحب النعش إلى أعلى، بينما كان الطبيب روبينسون جالسًا يراقب ما يحدث. رفع الرجلان الغطاء، وبكل وقاحة أمالا النعش وقلبا الجثة على الأرض. وفي تلك الأثناء كان القمر قد بدا في كبد السماء ظاهرًا بين السحاب، فألقى بضوئه على وجه هوس ويليامز الشاحب الذي فقد الحياة. وعندئذ رفعا ويليامز إلى عربة اليد وغطاه إنجون جو بلحاف، في حين ربط ماف بوتر الجثة بالحبل بإحكام ثم قطع الجزء الزائد من الحبل بسكِّينه.

قال إنجون جو: «انتهينا من الجزء الملعون من المهمة، والآن إذا أردت أن تنقل الجثة إلى أي مكان، فسوف يكلفك هذا خمسة دولارات أخرى.»

وثب الطبيب روبينسون على قدميه، وقال: «ما معنى هذا؟ لقد اتفقنا على أجر محدد وقد حصلتَ عليه مقدمًا!»

ردّ إنجون جو في تأفف، وهو يقترب من الطبيب: «ليس بيني وبينك أي اتفاق، فلطالما كرهتك؛ فمنذ خمس سنوات عرَّجتُ على مطبخ والدك أسأله شيئًا لآكله، فزج بي في السجن بتهمة التسول. أنسيتَ؟ أم خيل إليك أنني نسيتُ؟»

دنا إنجون أكثر فأكثر رافعًا قبضة يده في غضب في وجه روبينسون، إلا أن روبينسون لكمه على حين غرة بقوة طارحًا إياه أرضًا على ظهره.

صاح ماف بوتر غاضبًا بعد أن رمى بسكينه على الأرض: «إياك أن تضرب شريكي!»

عندئذ بدأ بوتر يتعارك مع الطبيب وفي خضم العراك نهض إنجون جو على قدميه والتقط سكين بوتر وزحف بحذر خلف الطبيب. وفجأة دفع الطبيب بوتر بعيدًا وانتزع لوحًا خشبيًّا ثقيلًا من قبر هوس ويليامز وسدد لبوتر ضربة قوية أردتْه أرضًا فاقدًا الوعي، وفي تلك اللحظة اغتنم إنجون جو الفرصة وطعن الطبيب في صدره بالسكين، وهو يقول: «إنجون جو يثأر لنفسه دائمًا!»

وعندئذ أخذ يفتش جثة الطبيب وسرق ما معه من محفظة وساعة يد ثم أخذ السكين الملطخة بالدماء ووضعها في يد ماف بوتر، وعندئذ جلس على النعش الفارغ وانتظر.

بعد وقت يسير تأوَّه ماف بوتر محكمًا قبضته على السكين واقشعرَّ بدن بوتر عندما وقعت عيناه على منظر نصل السكين في يده.

جلس بوتر ناظرًا إلى شريكه في ارتباك وحيرة، وقال: «ماذا حدث؟!»

أجاب إنجون جو: «يا لقذارة هذا الصنيع! لماذا فعلت هذا؟!»

– «أ ... أ ... أنا لم أفعل هذا يا جو.»

– «كفاك الآن، لن يمحو هذا الكلام ما اقترفتَه.»

ارتجف بوتر وازداد وجهه شحوبًا.

– «لا ... لا يمكنني أن أتذكر أي شيء على الإطلاق فأنا أشعر بالدوخة. يا له من أمر مريع يا جو، مريع للغاية؛ لقد كان شابًّا يافعًا!»

قال إنجون جو في هدوء: «كنتما تتعاركان وضربك بهذا اللوح الخشبي؛ فأفقدك الوعي، وأنت باغتَّه وانتزعتَ هذه السكين وطعنتَه بها في الوقت الذي ضربك فيه هو أيضًا ثانية.»

قال ماف متأوِّهًا: «تلك الدوخة هي السبب، فأنا لم استخدم السلاح في حياتي قط!» وسقط ماف المسكين على ركبتيه، مشبكًا يديه متوسلًا إلى جو، وقال: «عدني بأنك لن تخبر أحدًا يا جو، أرجوك، أتوسل إليك!»

ردّ جو: «لقد كنت مخلصًا لي دائمًا، ولهذا فاطمئن، لن أخبر أحدًا.»

قال ماف بوتر: «سأظل مدينًا لك من أجل هذا الصنيع ما حييتُ.» ثم أجهش بالبكاء.

قال إنجون جو وهو يهز شريكه من كتفيه: «لا يوجد وقت لتهدره في البكاء، لا بد أن تتحرك الآن، لا بد أن تهرب بعيدًا ولا تترك أيَّ أثر يدل عليك.»

نهض ماف بتؤدة على قدميه، وقال: «أشكرك شكرًا جزيلًا يا جو، أشكرك.»

ابتسم إنجون جو ابتسامة خبيثة وهو يشاهد ماف بوتر يوليه ظهره.

في تلك الأثناء كان القمر قد توارى وراء السحب، وعندما ظهر مرة أخرى، ألقى بضوئه على جثة الطبيب المقتول وجثة هوس ويليامز المغطاة باللحاف والنعش الذي كان بلا غطاء والقبر المفتوح. وخيم الصمت مرة أخرى.

أبكمَ الرعب توم وهاك اللذين فرا من مسرح الأحداث وكانا يخشيان أن يكون جو في أعقابهما، ولكنهما لم يتجرآ على النظر إلى الوراء واندفعا عبر الأشجار واجتازا الأكواخ التي تقع على طرف القرية حتى لاحت في الآفاق أمامهما المدبغة القديمة، فثبَّتا نظريهما عليها.

همس توم بصوت أجش: «لا أستطيع أن أصمد أكثر من ذلك!»

كان هاك يلهث بشدة أيضًا حتى إنه لم يستطع الردّ على توم. ودنا الصبيَّان أكثر فأكثر من المدبغة إلى أن اندفعا أخيرًا عبر بابها المفتوح وأوصداه خلفهما وسقط كلاهما على الأرض. وعلى مدار وقت طويل لم يكن هناك صوت في المكان سوى صوت أنفاسهما الثقيلة.

– «ما عقاب هذه الجريمة يا هاكلبيري؟»

– «الشنق. إذا مات الطبيب روبينسون بالفعل، فالعقاب هو الشنق.»

أخذ توم يفكر قليلًا.

– «ولكن من الذي سيشهد بما حدث؟» ثم أخذ يفكر مرة أخرى، ثم استرسل قائلًا: «هل سنشهد نحن يا هاك؟»

– «ما هذا الذي تقوله؟ افترض أنه وقع شيء ما وتمكن إنجون من الهرب من حبل المشنقة، بالتأكيد سيطاردنا نحن، دع أمر الشهادة هذا لماف بوتر.»

– «إن ماف بوتر لا يستطيع أن يشهد بشيء لأنه لا يعرف ما حدث، لقد كان فاقدًا الوعي طوال الوقت!»

– «يا إلهي، هذا صحيح!»

وساد صمت طويل مرة أخرى.

– «هل تظن أنه بمقدورك أن تلتزم الصمت يا هاك؟»

– «نحن مضطران إلى أن نلتزم الصمت. إن إنجون جو لن يتورع عن قتلنا. ولذلك فلا بد لنا من أن نقسم على أننا سنلتزم الصمت، أقسم لي يا توم على هذا!»

– «هذا أفضل شيء، سنتصافح ونقسم أننا سوف ...»

– «لا يا توم، هذا لا يكفي على الإطلاق؛ فالمصافحة تفي بالغرض في الأمور التافهة، وبين الصبايا وما إلى ذلك. لكن هذا الأمر خطير، فلا بد أن نقسم عليه كتابةً ونختم عليه بدمائنا.»

التقط توم قطعة خشب نظيفة ملقاة على الأرض وأخرج قطعة طباشير حمراء من جيبه وكتب بسرعة السطرين التاليين:

«أُقسم أنا هاك فين وتوم سوير على أننا سوف نلتزم الصمت بشأن هذا الأمر ومن يفش السر منا فليمت».

وعندئذ أخرج توم إبرة من جيبه ووخز كل واحد منهما إبهامه بها وضغط عليه ليخرج قطرة دم ووقع توم بالأحرف الأولى من اسمه باستخدام قطرات الدم الخارجة من إصبعه ثم علّم هاك، الذي لم يتعلم الكتابة في حياته قط، كيف يكتب الحرفين الأولين من اسمه «هـ» و«ف».

– «هل سيمنعنا هذا من إفشاء هذا السر إلى الأبد يا توم؟»

– «أعتقد ذلك.»

أخيرًا زحف توم عائدًا عبر نافذة حجرة نومه، وكان الليل قد أوشك على الانقضاء، فخلع ملابسه بهدوء واستلقى في فراشه برفق لكيلا يوقظ أخاه. ولم يعلم توم أن سيد نفسه هو الذي كان يتظاهر بالنوم الآن. وعندما استيقظ توم كان سيد قد ارتدى ملابسه ورحل. فتساءل توم تُرى لماذا لم تأت العمة بولي لتوقظه؟ نزل توم إلى الطابق السفلي، فوجد العائلة انتهت من تناول الفطور وكان يشعر بالألم والنعاس الشديد وقد أثار الصمت الذي كان يسود مائدة الإفطار دهشته، فلم تلتقِ عيناه بعيني أحد.

وأخيرًا فتحت العمة بولي فاها وأخذت تبكي وتسأله كيف يطيب له أن يظل طوال الوقت يحزنها هكذا؟ فلما سمع توم بكاءها، توجَّع قلبه تمامًا مثل جسده،

فبكى وتوسل إليها أن تسامحه وقطع لها وعدًا بأن يكون مهذبًا تمامًا. وشعر توم بالأسى الشديد حتى إنه نسى الشعور بالاستياء تجاه سيد لكونه وشى به. بيد أن العمة بولي لم تقل شيئًا وساد الإحباط، ثم انطلق هو إلى مدرسته.

الفصل السادس

توم يتصارع مع ضميره

بحلول وقت الغداء كانت قد انتشرت أنباء المقتل المريع للطبيب روبينسون في كل أنحاء القرية. وقد صرف السيد دوبينز الفصل الدراسي لبقية اليوم؛ إذ لم يكن بمقدور أحد أن يفكر في شيء سوى الحادث الشنيع الذي وقع الليلة المنصرمة.

وعُثر على سكين ماف بوتر الملطخة بالدماء بالقرب من جثة روبينسون ورأى شخصٌ ما ماف بوتر وهو يغتسل في جدول النهر نحو الساعة الثانية صباحًا، وكان مفاد الحديث الدائر أن القرية مقلوبة رأسًا على عقب للعثور على القاتل.

وبالتدريج بدأت أفواج من سكان القرية يتدفقون إلى المقابر. وقرر توم أن ينضم إلى الموكب، وبوصولهم إلى المكان المرعب، تسلل إلى مقدمة الجمع، وعلى الفور اندفع هاكلبيري سريعًا إلى جانب توم.

قال أحدهم: «واحسرتاه على هذا الرجل! واحسرتاه على هذا الشاب المسكين!»

قاطعه آخر: «عسى أن يصبح عبرة لنابشي القبور!»

نظر توم عبر الجمع وكاد قلبه يتوقف عندما وقعت عيناه على وجه إنجون جو الوحشي، وعندئذ ساد اضطراب بين الجموع.

صرخ صوت: «ها هو ماف بوتر!»

– «لا تدعوه يهرب!»

وقف ماف بوتر في مكانه بلا حراك، وهو ينظر حوله في ارتباك. وعندما رأى القتيل، أخذ جسده ينتفض ويرتجف بعنف شديد.

أخذ ماف بوتر يبكي بشدة ويقول: «لم أقتله يا أصدقائي، أقسم بشرفي إنني لم أفعل هذا البتة.»

سأله المأمور: «أليست السكين سكينك؟» ثم أخذ يلوح بالسكين في وجه بوتر.

وكاد ماف بوتر يتهاوى على الأرض عندما قبض عليه بعض الرجال الذين كانوا يقفون على مقربة منه، فأجلسوه على الأرض، فأخذ يبكي إلى أن وقعت عيناه على إنجون جو الذي كان مشرق الوجه.

قال بوتر: «أَخبرهم يا جو، أخبرهم! لا فائدة من تكتم الأمر الآن.»

وقف توم وهاك صامتين وكتما أنفاسهما عندما حملقا في إنجون جو في انتظار أن يتكلم. والتزم إنجون الهدوء قدر استطاعته ثم سرد على وتيرة واحدة حكاية مليئة بالأكاذيب؛ إذ أخذ يصف كيف تصارع بوتر مع الطبيب روبينسون وكيف انتهى به الحال إلى قتله إياه.

التفت شخص ما إلى ماف بوتر، وسأله: «لماذا لم ترحل؟ وما الذي أتى بك إلى مسرح الجريمة مرة أخرى؟»

تنهد بوتر، وقال: «لـ ... لم أستطع أن أمنع نفسي، كنتُ أنشُد الهرب، لكنني لم أستطع أن أذهب إلى مكان سوى هذا.»

أجهش ماف بوتر بالبكاء من جديد، بينما أخذ إنجون جو يكرر سرد حكايته بعد أن نطق بالقسَم هذه المرة. وصعق الصبيَّان من أكاذيب إنجون جو، ومن كونه سيفلت من العقاب على هذه الأكاذيب. لكن توم وهاك كانا مرتعدين من الإفصاح عن الحقيقة خوفًا من انتقام إنجون جو.

ازدادت الأمور سوءًا بمرض بيكي ثاتشر وتوقفها عن الذهاب إلى المدرسة. ماذا لو ماتت! تملكت المخاوف من توم حتى إنه لم يعد يجد متعة في أي شيء على الإطلاق، ولا حتى في أن يصير قرصانًا. وكان يصل إلى المدرسة مبكرًا كل يوم، وبدلًا من أن يلعب مع الأصدقاء، كان يتسكع عند بوابة المدرسة الأمامية مثبتًا نظره على الطريق.

ولاحت له مجموعة من الفتيات، فتكدر توم وانزعج من كل فتاة منهن لمجرد أنها ليست الفتاة المنشودة التي كان يتوقع رؤيتها. وعندما تلاشت آمال توم، اتجه إلى مبنى المدرسة الكئيب الموحش. وعندئذ شاهد فتاة أخرى قادمة من بعيد، فإذا به يصرخ ويضحك ويطارد الأولاد الآخرين من حوله. وجازف توم بحياته فقفز من فوق السور وانقلب واقفًا على رأسه. وكان يؤدي كل هذه الأعمال البطولية وعينه في ذات الوقت تراقب بيكي، وبعدئذ بدأت صيحات الحرب عندما خطف قبعة أحد الصبْيان وألقى بها على سقف مبنى المدرسة ثم اخترق زمرة من الصبْيان،

فأوقعهم على الأرض قبل أن يتجه إلى بيكي مباشرة ويبسط ذراعيه عليها ويكاد يوقعها على الأرض.

التفتت بيكي في ازدراء وهمهمت: «أف! بعض الناس يظنون أنهم أذكياء، ودائمًا ما يستعرضون!»

احمر وجه توم خجلًا، وقام من على الأرض ومضى في طريقه في هدوء وهو يشعر بالمهانة الشديدة.

وتجاهل توم بيكي على غداء هذا اليوم تجاهلًا تامًا، وتظاهر بأنه لا يراها وهي تجول في سعادة ووجه نضر جيئة وذهابًا تلهو مع بقية زملائها في الفصل، وكان واضحًا وضوح الشمس أنها تحاول أن تلفت نظر توم. وابتعد توم بعيدًا حتى يستهل حوارًا مع إيمي لورانس.

وفي وقت الراحة بين الحصص الدراسية، استمر توم يتودد إلى إيمي ويبذل كل ما في وسعه كي يتأكد من أن بيكي تراه. وفي آخر الأمر وجد توم بيكي تشاهد الصور في كتاب مصور مع ألفريد تيمبل وهما يجلسان على نحو حميمي على مقعد صغير خلف مبنى المدرسة، غارقَيْن بشدة في المشاهدة ورأساهما متقاربان جدًّا فوق الكتاب حتى إنه بدا عليهما أنهما لا يدريان بأي شيء آخر في العالم بأسره، ولا سيما بتوم وإيمي.

سرت الغيرة في عروق توم كالنار في الهشيم، ولمّا لم يطق تحمل منظر بيكي وألفريد للحظة واحدة أخرى، ودع توم إيمي وركض عائدًا إلى منزله. واستمرت بيكي تشاهد الصور مع ألفريد، لكن لمّا لم يعد هناك توم ليعاني من الغيرة، بدأت الدقائق تمر عليها وكأنها دهر، لذا أخذت بيكي تشعر بالحزن. ولمّا رأى ألفريد أن بيكي بدأت تنصرف عنه، ظل يستلفت انتباهها: «ها هنا صورة جميلة. انظري إلى هذه!»

صرخت بيكي: «لا تزعجني! فأنا لا أكترث لهذه الصور!» وعندئذ أجهشتْ بالبكاء وابتعدت بعيدًا.

الفصل السابع

توم الشجاع

لم يكن توم يكترث في وقت الراحة بشيء سوى الذهاب إلى المنزل للحصول على وجبة الغداء الشهية التي كانت تعدها العمة بولي. لكنه كاد لا يلمس الطعام في هذا اليوم، وأخيرًا قرر أن يصلح ما قد انكسر على نحو حاسم مع بيكي، فارتفعت معنوياته. وبعد مرور نصف ساعة، اتجه توم عائدًا إلى مدرسته، فالتقى بيكي مصادفة، وبدون تردد ركض إليها.

– «لقد تصرفتُ بطريقة وضيعة اليوم يا بيكي وأنا في أشد الأسف وأؤكد لكِ أنني أبدًا لن أتصرف هكذا ما حييت. أرجوكِ صالحيني، هل ستصالحينني؟»

وقفت الصبيَّة ونظرت إليه وعيناها ممتلئتان ازدراء.

– «سأكون ممتنة لك لو تركتني وشأني يا سيد توماس سوير لأنني لن أتحدث إليك مرة ثانية أبدًا.» ثم استدارت في غضب ومضت في طريقها.

صُعق توم حتى إنه شُل عن التفكير، فلم يفكر في أن يقول لها: «لا يهمني أيتها الجميلة!» إلا بعد أن غادرت بالفعل بوقت طويل. ثم اندفع نحو فناء المدرسة مستشيطًا غضبًا أكثر من ذي قبل، وتمنى لو أنها كانت ولدًا؛ إذًا لأوسعها ضربًا.

لكن سرعان ما وجدت بيكي نفسها في مشكلة. كان معلمهم الأستاذ دوبينز قد دأب كل يوم على أن يخرج كتابًا غامضًا من مكتبه، وكان هذا الكتاب هو أثمن ما لديه، فكان يضعه في درج المكتب، ويغلقه بالقفل والمفتاح ويخرج الكتاب ليقرأه في الوقت الذي يكون فيه التلاميذ منهمكين في الأنشطة الأخرى. وكان لكل طفل في الفصل وجهة نظر مختلفة حول الكتاب، وكان كل منهم يتحرّق شوقًا لأن ينظر إلى ما فيه، ولو نظرة خاطفة.

مرت بيكي بمكتب السيد دوبينز ولاحظت أن المفتاح موضوع في القفل! في اللحظة التالية كان الكتاب بين يديها. لم تهتم بيكي كثيرًا بالصفحة الأولى التي كانت تحمل اسم الكتاب: (تاريخ إنجلترا القديمة، لبروفيسور فلان الفلاني)؛ لذا أخذت تتصفح الكتاب. وكان أول شيء وقعت عيناها عليه هو صورة ملونة مطبوعة بنقش بارز لفارس مدرع وهو يمتطي جواده. وعندئذ وقع ظل شخص على الصفحة، لقد كان توم سوير خلفها. ومن فورها أحكمت بيكي قبضتها بسرعة على الكتاب لكي تغلقه، وبفعلتها هذه مزقت الصفحة حتى منتصفها، وعلى الفور أعادت بيكي الكتاب مرة أخرى إلى مكتب دوبينز، ثم أدارت المفتاح، وانفجرت تبكي وهي مستشيطة غضبًا.

– «يا لك من إنسان وضيع يا توم سوير؛ لأنك تسللت وراء شخص وباغتَّه ونظرت إلى ما ينظر إليه.»

– «ومن أين لي أن أعرف أنك كنت تنظرين إلى أي شيء؟»

– «لا بد لك من أن تخجل من نفسك يا توم سوير؛ لأنك ستشي بي الآن. يا إلهي، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل! لعمري إنني ما عُوقبت في المدرسة أبدًا.»

وعندئذ ركضت إلى خارج الفصل الدراسي.

بيد أن توم ظل واقفًا في مكانه، شاعرًا بالمزيد من الحيرة وأخذ يتمتم في نفسه: «يا لها من فتاة فضولية حمقاء! بالطبع إنني لا أنوي أن أشي بهذه الحمقاء الصغيرة إلى العجوز دوبينز، لكن وماذا في هذا؟ فهو سيسأل من الذي مزق الكتاب. ولن يجيبه أحد. إذن سيفعل كما يفعل دائمًا؛ سيسأل كل تلميذ على حدَة، وعندما يصل إلى الفتاة المنشودة سيعرفها حتى قبل أن يسألها؛ فالفتيات دائمًا تفضحهن وجوههن، فهن يفتقرن إلى رباطة الجأش؛ لذا دعها تنتظر على أحر من الجمر!»

وهنا انضم توم إلى حشد من رفقاء الصف الذين كانوا يثرثرون ويلهون. وبعد لحظات معدودة، وصل المعلم السيد دوبينز، فهدأ كل تلاميذه وتبعوه إلى داخل الفصل. وبدأت الحصة بالفعل، لكن توم كان منهمكًا في آخر شجار له؛ فلم ينتبه. ثم ثبت توم نظره على المكان الذي تجلس فيه الفتيات في الفصل، فأزعجه وجه بيكي المضطرب. لم يرد أن يشعر بالأسف من أجلها، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من ذلك.

ومرت ساعة كاملة ببطء شديد. وأخيرًا تثاءب السيد دوبينز وفتح مكتبه وأمسك بكتابه، وعندما أخرجه من المكتب رمق توم بيكي بنظره؛ فذكَّره وجهها بمنظر الأرنب عندما يطارده كلب من كلاب الصيد. وعلى الفور نسي توم ما بينهما من شجار، فلا بد من فعل شيء ما، وبسرعة! لكن ما الذي يمكن فعله؟ قدح توم زناد فكره دون أن يصل إلى شيء. وخيم الصمت فترة يسيرة للغاية قبل أن يصرخ المعلم: «من الذي مزق هذا الكتاب؟»

لم ينبس أحد ببنت شفة، في حين كان دوبينز يتنقل بنظراته من وجه لآخر، بحثًا عن أمارات الشعور بالذنب والارتباك.

– «بينجامين روجرز ... هل مزقت هذا الكتاب؟»

– «لا يا سيدي.»

– «أهو أنت يا جوزيف هاربر؟»

جاءته إجابة أخرى بالنفي.

انتهى المعلم من سؤال الصبيان، وفكر لحظة ثم انتقل إلى الفتيات.

– «أفأنتِ يا إيمي لورانس؟»

هزت إيمي رأسها، ثم قالت: «لا.»

– «أفأنت يا جريسي ميلر؟»

فجاءه نفس الرد.

– «سوزان هاربر، هل أنتِ من فعل هذا؟»

– «لا.»

حان الدور التالي، فارتجف توم من رأسه إلى أخمص قدميه.

– «هل هو أنتِ يا ريبكا (بيكي) ثاتشر؟»

شحب وجه بيكي من شدة الرعب. وحاولت الفتاة المسكينة أن تدير وجهها بعيدًا عن حملقة دوبينز، ولكنه قال: «يا آنسة ثاتشر، انظري إلي وجهي وأجيبيني، هل أنت من مزقت هذا الكتاب؟»

أومضت فكرة في ذهن توم كالبرق، فوثب على قدميه، وقال: «أنا من فعلها.»

لا يمكن أن يصدِّق أحد في المدرسة هذا الصنيع الأحمق العجيب. ولكنَّ نظرة العرفان بالجميل والحب، التي كانت تشع في هذه اللحظة من عيني بيكي، كانت تعويضًا كافيًا عن مائة ضربة. شدت هذه النظرة من أزر توم، وجعلته يتحمل

عقابه، بالإضافة إلى العقاب العنيف الآخر بالحبس بعد المدرسة لمدة ساعتين، دون أن يبدي أي اعتراض البتة. فعل توم هذا وهو يعرف من سيكون بانتظاره بالخارج حالما ينتهي الحبس.

في تلك الليلة خلد توم إلى النوم وكلمات بيكي تملأ أذنيه أحلامًا: «ما أنبلك يا توم!»

الفصل الثامن

محاكمة ماف بوتر

أصبحت العطلة الصيفية على الأعتاب، وفجأة وجد توم أن الأيام الدراسية قد ولت وحلَّت أيام الحرية مجددًا. ومرّ اليوم الرابع من يوليو/تموز، يوم عيد الاستقلال، مرور الكرام. وبدأ وقت العطلة الثمينة يمر على توم ببطء وملل شديدين؛ فقد كان أول الأمر أن غادرت بيكي ثاتشر المدينة مع والديها لقضاء العطلة الصيفية، علاوة على أن توم أُصيب بالحصبة.

وعلى مدار أسبوعين طويلين، ظل توم حبيس الفراش، مقطوعًا تمامًا عن العالم الخارجي وما يجري فيه. وعندما بدأ يستعيد صحته أخيرًا، بدأت الحياة تدب في قرية سانت بيترسبرج من جديد؛ إذ أوشكت أن تنعقد محاكمة ماف بوتر على جريمة القتل التي اقترفها، وسرعان ما صارت حديث المدينة.

كان ذكْر موت الطبيب روبينسون يبث الرعدة في نفس توم، ولم يدرك لأي مدى يمكن أن يُشتبه في كونه يعرف شيئًا عن الجريمة، ولكنه كان لا يزال منزعجًا وسط كل هذا القيل والقال. فكلما تناهى إلى مسامعه اسم ماف بوتر، اقشعر بدنه. وتاق إلى أن يتخلص من هذا السر المريع وأن يجاهر بالحقيقة. وفي يوم من الأيام اختلى بهاك للتحدث معه حديثًا خاصًّا.

أخذ توم يتحدث بجدية: «هل أخبرتَ أحدًا قط بهذا الأمر يا هاك؟»

– «أي أمر؟»

– «أنت تعرف أي أمر.»

– «آه، بالطبع لم أخبر به أحدًا البتة.»

– «ألم تقل ولا كلمة واحدة؟»

– «أقسم لك أنني لم أتفوه ولو بكلمة واحدة. ما الذي حدا بك إلى أن تسأل؟»

– «حسنًا. كنتُ خائفًا فحسب.»

– «اعلم يا توم أنه إن اكتُشف الأمر، فلن يمر علينا يومان ونحن على قيد الحياة، أنت تعرف هذا.»

صمت توم للحظة، ثم قال: «أظن أن ماف بوتر سيهلك، ألا تشعر بالأسف من أجله أحيانًا؟!»

أجاب هاك: «أكاد أشعر بهذا طوال الوقت؛ فماف بوتر لم يؤذ أحدًا في حياته قط؛ ربما كان يحتال قليلًا للحصول على رزقه وقوته، ولكننا جميعًا نفعل هذا. وهو رجل صالح، وذات مرة أعطاني نصف سمكة، مع أن ما كان ما بحوزته من طعام لم يكن يكفي كلينْا، ولطالما كان يساعدني كلما ساءت أحوالي.»

أضاف توم إلى كلامه: «لقد كان يساعدني في إصلاح طائراتي الورقية عندما تتمزق، وكان يربط لي خيط السنارة كلما فشلت في ذلك. ليتنا نستطيع أن نهربه من السجن.»

– «يا إلهي! لا نستطيع أن نهربه يا توم، علاوة على أن هذا لن يجدي نفعًا، إذ سيلقون القبض عليه من جديد.»

صدَّق توم على كلامه قائلًا: «في الغالب سيلقون القبض عليه، كل ما هنالك هو أنني أنزعج عندما أسمعهم يطعنون فيه، خاصة لأنه لم يقترف أي جرم.»

– «أنا أيضًا أنزعج يا توم إذ أسمعهم يقولون: إن ماف هو أكثر وغد متعطش للدماء في هذا البلد، ويتساءلون: لماذا لم يُشنق من قبل؟!»

استمر الصبيَّان يتحدثان، لكن ذلك لم يرحهما إلا أقل من القليل ثم مضى توم إلى منزله حزينًا هذه الليلة وكانت أحلامه تزخر بالمشاهد المرعبة. وعلى مدار اليومين التاليين، كان توم يتسكع حول قاعة المحكمة، مدفوعًا بقوة قاهرة للدخول إليها. وكذلك أيضًا شعر هاك، لكن الصبيين كانا خائفين للغاية لدرجة أن كلًّا منهما كان يتحاشى أن ينظر نحو الآخر.

وخارج مبنى المحكمة الضخم، كان كل ما يسمعه توم يشير إلى أن الأدلة جميعها تتضافر ضد ماف. وفي نهاية اليوم الثاني للمحاكمة، كانت شهادة إنجون جو حاسمة، فكان معروفًا بالطبع أي حكم سيصدر على ماف.

تأخر توم في الرجوع إلى المنزل هذه الليلة؛ لذا أوى إلى فراشه عبر النافذة، وكان في حال شديدة من الحماس حتى إنه لم يستطع أن يخلد إلى النوم على مدار ساعات.

وفي صبيحة اليوم التالي، تدفقت الجموع الغفيرة من سكان القرية كلها إلى مبنى المحكمة الضخم، إذ كان من المفترض أن يكون هذا اليوم يومًا مشهودًا. وبعد طول انتظار، دخل أعضاء هيئة المحلفين قاعة المحكمة وجلسوا في أماكنهم. وبعدها بفترة وجيزة، أُحضر ماف بوتر، الذي بدا شاحبًا ومؤرقًا، مصفدًا بالأغلال وأُجلس في مكان يسمح للجميع بالحملقة فيه. وجلس إنجون جو في مكان لا يقل عنه وضوحًا، رابط الجأش كعادته. وما أن وصل القاضي حتى انتشر الهمس المعتاد بين المحامين وتبع ذلك استكمال بعض الأعمال الورقية الروتينية. وقد عظَّمت كل هذه التفاصيل والتواني في بدء المحاكمة الشعور بالإثارة لدى جميع مَن بقاعة المحكمة.

وأخيرًا استدعى الشاهد الذي شهد بأنه رأى ماف بوتر يغتسل عند جدول النهر في ساعة مبكرة من صباح اكتشاف الجريمة، وأنه تسلل على الفور. وبعد أن انتهى جانب الادعاء من طرح أسئلته، حان دور محامي ماف بوتر ليستجوب الشاهد.

قال المحامي في هدوء: «ليست لدي أسئلة.»

شهد الشاهد التالي بأنه رأى سكين ماف بوتر بالقرب من الجثة.

لكن مرة أخرى لم يسأل محامي بوتر الشاهد سؤالًا واحدًا.

مضى شاهد ثالث ورابع في شهادتهما أيضًا دون أن يفعل محامي بوتر أي شيء، فحمي غضب الحاضرين وبدأ كثيرون يتعجبون: ما الذي يجري بالفعل؟ هل تعمد محامي ماف بوتر أن يهدر حياة موكله دون أي مجهود يذكر؟!

استُدعي شاهد أخير، فشهد بسلوك بوتر الإجرامي في مسرح الجريمة، ومرة أخرى لم تكن هناك أي أسئلة من جانب محامي بوتر.

وهنا سرى اضطراب عظيم بين الجمع، فاضطر القاضي إلى أن يأمر الجميع بالتزام الهدوء.

وأخيرًا أنهى المدعي دعوته ضد ماف بوتر قائلًا: «بناء على قسم المواطنين الذين لا يمكن أن يرقى الشك إلى قسمهم، قررنا أن مقترف هذه الجريمة الشنيعة هو السجين البائس الماثل أمامكم.»

أفلتت التأوهات من بوتر المسكين ووضع وجهه في يديه وأخذ يهز جسده هزًّا خفيفًا للخلف وللأمام، في حين خيم صمت أليم على أنحاء قاعة المحكمة.

عندئذ نهض محامي ماف بوتر من مقعده وقال: «سيادة القاضي، في بداية هذه المحاكمة أتيتُ وفي نيتي إثبات أن موكلي إنما اقترف هذه الجريمة الشنعاء

تحت تأثير ارتباك متهور غير مسئول نتيجة لإصابته بنوبات الدوار. ولكنني الآن عدلت عن رأيي، ولسوف أقدم دليلًا يثبت براءة موكلي. إنني أطلب استدعاء توماس سوير إلى منصة الشهادة!»

بهت جميع من في قاعة المحكمة بمن فيهم ماف بوتر عندما نهض توم واتخذ مقعده في منصة الشاهد. وبعد أن رفع الفتى الذي تظهر عليه سيماء الارتعاد يده اليمنى وأقسم على أن يقول الحقيقة، نظر محامي بوتر في عينيه مباشرة.

– «توماس سوير، أين كنت في اليوم السابع عشر من يونيو/حزيران نحو منتصف الليل؟»

حدق توم في وجه إنجون القاسي الملامح، فخانه صوته. وأنصت الجمع منقطعي الأنفاس إلى توم، ولكن الكلمات رفضت أن تخرج من فمه. وأخيرًا بعد بضع لحظات نطق توم بصوت واهن: «في المقابر.»

اعتلت وجه إنجون جو نظرة ساخرة شريرة.

– «هل كنت في مكان قريب من قبر هوس ويليامز؟»

– «أجل يا سيدي.»

– «ارفع صوتك أعلى قليلًا فحسب. كم كنت قريبًا من القبر؟»

– «كنت قريبًا منه كقربي منك الآن.»

– «هل كنت مختبئًا أم لا؟»

– «كنت مختبئًا.»

– «أين؟»

– «وراء شجر الدردار الموجود عند طرف القبر.»

في تلك اللحظة بدا أن جسد إنجون جو قد تجمد بأكمله، وتلاشت الابتسامة الساخرة من وجهه.

– «هل كان معك أحد؟»

– «أجل يا سيدي، لقد ذهبت إلى هناك بصحبة ...»

– «انتظر لحظة! دعك من ذكر اسم صاحبك، فسوف نقدمه في الوقت المناسب. هل كنت تحمل معك من شيء؟»

تردد توم وبدا مرتبكًا.

– «تكلم يا ولدي. إن الحقيقة جديرة بالاحترام دائمًا. ماذا أخذت معك إلى هناك؟»

– «لم يكن معي سوى جـ ... جرعة دواء لعلاج الثآليل.»

فسَرت موجة من الضحك وسط الجمع.

– «والآن يا ولدي، أخبرنا بكل شيء وقع، أخبرنا بطريقتك الخاصة، لا تتحاشَ ذكر أي شيء ولا تخَف البتة.»

بدأ توم بتؤدة في بادئ الأمر، ولكن عندما تحمس لقصته، أخذت الكلمات تتدفق من فمه بسهولة ويسر أكثر فأكثر، وبعد فترة وجيزة لم يكن يُسمع صوت في قاعة المحكمة سوى صوت توم وكانت جميع الأنظار مثبتة عليه وبلغ التوتر أوجه عندما قال الصبي: «وبعدما التقط الطبيب اللوح مباشرة وضرب به ماف بوتر وسقط ماف بوتر، انقض عليه إنجون جو بالسكين و...»

وفجأة، وبسرعة البرق شق إنجون جو طريقه وسط الجمع واندفع نحو النافذة واختفى في لمح البصر!

الفصل التاسع

السعي وراء الكنز المدفون

صار توم بطلًا، مثار حسد الصغار والكبار على السواء، حتى إن اسمه ظهر في صحيفة مدينة بيترسبرج. ولكن بقدر ما أصبحت أيامه سعيدة الآن، امتلأت أحلامه بالمخاوف؛ إذ كان إنجون جو يكمن له في كل أحلامه ونية الانتقام في عينيه دائمًا.

وكان هاك المسكين يشعر بالخوف تمامًا كما يشعر به توم، وقد سيطرت عليه المخاوف بشدة من أن يكتشف إنجون جو دوره ويطارده هو أيضًا. وكان إيمان توم بالصواب والخطأ هو الذي دفعه إلى أن يزور خفية محامي ماف بوتر ويخبره بما جرى في الحقيقة. ولكنه كان يُعتبر بهذا الصنيع أيضًا قد حنث بقسَم موقع عليه بالدم؛ القسَم الأكثر سرية وسط كل الأقسام. ومنذ ذلك الحين تعسر على هاك أن يضع ثقته في أي شيء.

وبعد النهاية المثيرة التي انتهت بها محاكمة ماف بوتر، أُعلن عن مكافأة لمن يلقي القبض على إنجون جو وجرى تفتيش شتى البقاع، ولكنه لم يُضبط في أي مكان. وبينما توالت الأيام دون أن تظهر في الآفاق أي أمارات تشير إلى مكان إنجون جو، أخذت مخاوف توم تنزوي تدريجيًّا.

وبعد انقضاء زمن يسير، راودت توم فكرة التنقيب عن كنز مدفون، فجدّ توم في طلب هاك؛ إذ كان يعرف أن هاك على أهبة الاستعداد دائمًا لأن يشارك في أي مغامرة تبدو شائقة ومثيرة. ووافق هاك بحماس على عرض توم، ولكنه بعد أن فكر للحظة سأله: «وأين سنحفر يا توم؟»

رد توم: «في أي مكان.»

– «لماذا، هل الكنز مخفى في كل الأرجاء؟»

– «لا، في الحقيقة لا. إنه مخفى في أماكن بعينها يا هاك: أحيانا في جزر، وأحيانا في صناديق بالية تحت غصن شجرة عتيقة ميتة، بالضبط في المكان الذي يقع فيه الظل عند منتصف الليل؛ وفي الأغلب الأعم يكون مخفيًا تحت أرضيات المنازل المسكونة بعفاريت الجن.»

– «ومن الذي يخبئه؟»

– «اللصوص بالفعل، ومن غيرهم في رأيك يفعل ذلك؟ هل معلمو مدارس الأحد؟!»

– «لو كنتُ لصًّا، ما كنتُ لأخبئها، بل كنتُ سأنفقها وأستمتع بها في حياتي.»

– «وأنا أيضًا، لكن هذه ليست عادة اللصوص، فهم دائمًا ما يخبئونها ويتركونها هناك.»

– «أولا يأتون مرة أخرى سعيًا وراءها؟»

– «إنهم يظنون ذلك، ولكنهم عادة ما ينسون المكان الذي وضعوا فيه خريطة الكنز التي يوجد عليها العلامات التي توضح المكان الذي يجب أن يحفروا فيه. أو لعلهم يموتون في أحيان أخرى، لذا يظل الكنز في مكانه لزمن سحيق ويصدأ إلى أن يعثر أحد على خريطة صفراء عتيقة توضح كيفية العثور على العلامات.»

– «وهل حصلتَ على واحدة من هذه الخرائط يا توم؟»

– «لا.»

– «حسنًا، فكيف إذن ستعثر على العلامات؟»

– «انسَ أمر العلامات؛ فهم عادة ما يدفنون الكنز تحت أحد المنازل المسكونة أو في جزيرة أو تحت شجرة ميتة، أحد أفرعها ناتئ. وهناك منزل مسكون قديم يقع عند تل كارديف، وهناك أيضًا تكثر الأشجار ميتة الأفرع.»

– «هناك قطعة أرض مريعة مليئة بالأشجار الميتة بالقرب من هذه البقاع يا توم؛ فمن أين لك أن تعرف الشجرة المنشودة كي تحفر عندها؟»

– «سأقصد جميع الأشجار!»

– «كيف هذا يا توم، إن ذلك سيستغرق الصيف كله!»

– «وما المشكلة في هذا؟ افترض أنك عثرت على إناء نحاسي فيه مائة دولار، جميعها صدئة ورمادية، أو على صندوق بالٍ مليء بالألماس. ما قيمة كد الصيف إلى جانب هذا؟»

التمعت عينا هاك؛ إذ كان هذا هو كل ما يحتاجه كي يقتنع.

فهز هاك كتفيه وقال: «ماذا عن تلك الشجرة العتيقة ميتة الأفرع الموجودة بأعلى عند تل كارديف على الجانب الآخر من جدول النهر؟»

– «اتفقنا.»

وعليه جلب الصبيَّان معولًا وجاروفًا وشرعا في رحلتهما. وأخيرًا وصلا إلى الشجرة العتيقة الميتة وهما منقطعا الأنفاس وشاعران بالحر الشديد؛ فجلسا ليستظلا بفرع شجرة مجاورة لينالا قسطًا من الراحة ويمضغا العلك.

قال توم: «أحبُّ هذا.»

صدَّق هاك على كلامه قائلًا: «وأنا أيضًا.»

– «أخبرني يا هاك، لو عثرنا على كنز هنا، فماذا تنوي أن تفعل بنصيبك منه؟»

– «حسنًا، سوف أجلب لنفسي كل يوم فطيرًا ومشروبًا غازيًّا. ولسوف أحضر كل سيرك يُقام.»

– «ألا تنوي أن تدخر جزءًا منه؟»

– «أدخر. من أجل ماذا؟»

– «حسنًا، ماذا لو أردتَ أن تتزوج؟»

– «أتزوج!»

– «أجل.»

– «أنت ... أنت فقدت صوابك يا توم!»

– «انتظر، ولسوف ترى!»

– «يا توم، إن هذا لهو أكثر ما يمكنك فعله حماقةً. انظر إلى أبي وأمي؛ لقد كانا يتشاجران طوال الوقت، أنا أذكر هذا جيدًا.»

– «الفتاة التي أنوي الزواج بها لن تتشاجر.»

– «يجدر بك يا توم أن تفكر مليًّا في الأمر؛ فإنهن جميعًا يتشاجرن. ما اسم هذه الفتاة؟»

– «سأخبرك فيما بعد.»

– «حسنًا، يكفي هذا. لكن إن تزوجتَ أنت، فسوف أشعر أنا بالوحدة والوحشة أكثر من أي وقت مضى.»

– «لا، لن تشعر بالوحدة لأنك ستأتي وتعيش معي. والآن دعنا نبدأ في الحفر.»

عمل الصبيَّان على مدار نصف الساعة وأخذ العرق يتصبب منهما دون جدوى، فكدحا على مدار نصف ساعة أخرى دون الوصول إلى شيء أيضًا.

سأل هاك: «هل يدفنون الكنوز عادة على هذا العمق؟»

– «ليس دائمًا. أظن أننا لم نحفر في المكان الصحيح.»

اختار الصبيَّان بقعة جديدة وبدآ الحفر من جديد. وأخيرًا، مال هاك على جاروفه ومسح بكمه قطرات العرق المتصببة من جبينه، وقال: «يا توم، لا بد أننا نحفر في المكان الخاطئ أيضًا. ما رأيك؟»

– «يا له من أمر غريب للغاية. أظن أنه ربما تكون هناك ساحرة تحاول أن تزعجنا؛ فالساحرات يُحببن أن يحتفظن بالذهب ويخبئنه لأنفسهن.»

– «ما هذا الذي تقوله! إن الساحرات لا يمتلكن أي قوة بالنهار.»

أقر توم قائلًا: «حسنًا، أنت محق. لم أفكر في هذا. أعرف ما الخطب! يا لحماقتنا! لا بد أن نكتشف أين يسقط بالضبط ظل الشجرة ذات الفرع الميت الذي يعكسه القمر عند منتصف الليل بالتمام، وعندئذ فقط يجب أن نبدأ الحفر!»

– «سُحقًا! لقد قمنا بكل هذا العمل دون طائل!»

أجاب توم: «لا بد أن نقوم بهذا الليلة. انتهى الأمر.»

سأله هاك: «وهل سيمكنك الخروج من منزلك؟»

– «أؤكد لك أنني سأفعل.»

– «حسنًا، سآتي بالقرب من المنزل وأموء كالقطة الليلة.»

قال توم: «حسنًا. دعنا نخبئ المعدات بين الأشجار الملتفة.»

في وقت متأخر من هذه الليلة، تسلل الصبيَّان عائدين إلى الشجرة العتيقة الميتة وجلسا في الظلام بانتظار حلول منتصف الليل بالتمام. وكان المكان مهجورًا والأرواح تهمس في حفيف أوراق الشجر والأشباح تكمن في الأركان المظلمة. وكان عواء أحد كلاب الصيد المقبض للصدور يسْبح عبر الفضاء الفسيح آتيًا من بعيد، فتجاوبه بومة بنعيقها الخفيض. وفي آخر الأمر قرر توم وهاك أن الساعة الثانية عشرة حانت أخيرًا، وعليه علَّما البقعة التي وقع عندها الظل وبدآ الحفر. وازداد عمق الحفر شيئًا فشيئًا. ولكنهما كانا كلما انتبها لصوت اصطدام المعاول بشيء ما، اتضح بعدها أنها إنما تصطدم بحجارة.

قال توم: «لا فائدة يا هاك. لقد أخطأنا مرة أخرى.»

– «لكن لا يمكن أن نكون قد أخطأنا، لقد علمنا مكان الظل بالضبط.»

قال توم في هدوء: «حسنًا، ثمة شيء آخر.»

– «وما هو؟»

– «لقد خمنَّا ما هو الوقت لأننا لا نملك ساعة. لا بد من أن الوقت قد تأخر للغاية أو تقدم.»

أسقط هاك جاروفه.

– «لقد انتهى الأمر، لا بد من أن نستسلم هذه المرة؛ إذ إننا لن نستطيع أبدًا أن نعرف الوقت المضبوط. علاوة على أن وقت الليل يكون مريعًا للغاية؛ فهو مليء بالساحرات والأشباح التي ترفرف حولنا. فأنا أشعر بوجود شيء وراءنا طوال الوقت.»

اعترف توم: «وأنا أشعر بالشيء نفسه تمامًا.»

– «هيا يا توم، لنترك هذا المكان ونحاول في بقعة أخرى.»

– «أظن أن هذا سيكون أفضل.»

– «وأين سنبحث هذه المرة؟»

فكر توم لحظة، ثم قال: «المنزل المسكون.»

– «سحقًا يا توم! لا أحب المنزل المسكون؛ فهناك تتضاعف احتمالات وجود الأشباح.»

– «أجل يا هاك، ولكن الأشباح لا تخرج إلا في الليل فحسب. ولن يمنعونا من الحفر هناك أثناء النهار.»

اضطر هاك أن يوافقه الرأي، فقال: «حسنًا، أنت محق بشأن هذا، ولكنك تعرف حق المعرفة أن الناس لا تقترب من هذا المنزل ليلًا أو نهارًا.»

– «هذا يرجع في المقام الأول إلى أن الناس لا تحب الذهاب إلى مكان وقعت فيه جريمة قتل. وعلى كل حال، لم يُر أي شيء حول هذا المنزل سوى في الليل؛ إذ تظهر بعض الأضواء الزرقاء من النوافذ ولا تأتي الأشباح بصفة منتظمة.»

– «حسنًا يا توم، أينما رأيت الأضواء الزرقاء تومض، يمكنك أن تتأكد من وجود شبح قريبًا جدًّا. إن هذا لأمر منطقي للغاية.»

أكد توم اتفاقه معه قائلًا: «هذا صحيح. ولكن الأشباح لا تظهر أثناء النهار، وإذن فما الداعي لكل هذا الرعب الشديد؟»

– «حسنًا، سوف نتجه إلى المنزل المسكون كما تقول، مع أن في ذلك مجازفة كبيرة.»

انحدر الصبيَّان عبر التل، وهناك في منتصف الوادي الذي كان يضيئه نور القمر، كان المنزل المسكون قائمًا بأسواره العتيقة، والأعشاب الضارية تغطي بكثافة عتبة الباب. وكانت المدخنة منهارة وأُطر زجاج النوافذ مكسَّرة إلى أجزاء، بل وكان أحد أركان السقف منهارًا أيضًا. حملق الصبيَّان في المنزل لبعض الوقت في انتظار أن يظهر ضوء أزرق وراء النوافذ في أي لحظة. وعندئذ تهامسا فيما بينهما، ثم استدارا سريعًا في حركة مفاجئة كي يبتعدا قدر استطاعتهما عن هذا المنزل، وبعدها شقا طريقهما نحو منزليهما عبر الغابات التي كانت تغطي المنحدر الخلفي من تل كارديف.

الفصل العاشر

خطر بداخل المنزل المسكون

بحلول ظهر اليوم التالي، عاد الصبيَّان إلى المنزل المسكون. وكان الغموض والغرابة يكتنفان الصمت المطبق الذي يعم هذا المنزل القائم تحت أشعة الشمس المحرقة، بينما يبعث المكان المهجور على الكآبة والحزن، حتى إنهما كانا مرتعدين من الذهاب إليه. وأخيرًا، زحفا تجاه إحدى النوافذ واختلسا النظر وهما يرتجفان؛ فرأيا بالداخل أعشابًا ضارية نامية وحجرة بلا أرضية ومدفأة قديمة ودرجات سلم منهارة وخيوط العنكبوت الممزقة تتدلى في كل الأرجاء.

دخل توم وهاك في هدوء وهما يتحدثان في همس وآذانهما منتبهة إلى أضعف الأصوات وعضلاتهما متأهبة للتقهقر الفوري. وتفقدا الأرضية بنظرات فاحصة شاملة؛ وهنا أخذت مخاوفهما تتقهقر شيئًا فشيئًا، فوضعا أخيرًا أدوات الحفر جانبًا وقررا أن يتفقدا الطابق العلوي.

كان الطابق العلوي مظلمًا وقذرًا مثل الطابق السفلي تمامًا. وعثر الصبيَّان في أحد الأركان على خزانة، لكن اتضح أنها فارغة، فشعرا بالإحباط، وكانا على وشك النزول إلى أسفل وبدء العمل عندما ...

قال توم: «أنصت!»

همس هاك: «ما الأمر؟ وأخذ وجهه يمتقع من الذعر.»

– «هناك! ... أتسمع هذا؟»

– «أجل! ... يا إلهي! لنهرب!»

قال توم: «لا تتحرك! إنهم قادمون تجاه الباب الأمامي مباشرة.»

انبطح الصبيَّان على الأرض وأخذا يحدقان في الحجرة الموجودة في الطابق السفلي عبر بعض الألواح المكسورة. وقد استلقيا ساكنين قدر استطاعتهما، مترقبين في ارتعاد.

انفتح الباب الأمامي ودخل منه رجلان. فالتفت توم إلى هاك وتمتم في هدوء: «ذلك هو الإسباني الكهل الذي عرَّج على المدينة مرة أو مرتين في الفترة الأخيرة ويقول الناس عنه إنه لا يسمع ولا يتكلم، أما ذلك الرجل الآخر فإنني لم أره من قبل.»

وكان الرجل الآخر رث الثياب متسخ المظهر مكفهرَّ الوجه. أما بالنسبة للإسباني الغامض، فقد كان يتدثر بشال صوفي ملون طويل. وكان شاربه أبيض كثيفًا وشعره الأبيض الطويل يتدلى من تحت قبعته المكسيكية وكان يرتدي نظارات خضراء. جلس الرجلان على الأرض، وجهاهما إلى الباب وظهراهما إلى الجدار، فحاول توم وهاك أن يسترقا السمع إلى كل كلمة يقولانها.

قال الرجل المكفهر الوجه لرفيقه: «لا، لقد فكرتُ في الأمر مليًّا ووجدته لا يروق لي؛ فهو أمر خطير.»

قال الإسباني متبرمًا: «أمر خطير! هذا هراء!» فصُدم الصبيَّان لدى سماعهما صوته.

فما إن سمع توم وهاك صوت الرجل الإسباني حتى ارتعدت فرائصهما؛ فقد كان ذلك الإسباني هو إنجون جو متنكرًا! طال الصمت ثم تكلم إنجون فقال: «وهل هناك شيء أخطر من المجيء إلى هنا في وضح النهار!»

– «أعرف هذا، وأريد الإقلاع عن هذا الأمر اللعين؛ وكلما أسرعنا، كان ذلك أفضل.»

أخرج الرجلان بعض الطعام، وبدآ يعدَّان الغداء. وبعد طول تفكير قال إنجون: «اسمع أيها الرجل، ارجع إلى النهر من حيث أتيت وانتظر هناك حتى آمرك، ولسوف أجازف بأن أعرِّج على هذه المدينة مرة أخيرة لكي ألقي نظرة. ولسوف نقوم بهذا العمل «الخطير» بعد أن أتحسّس ما حولنا قليلًا. وبعدها نرحل إلى تكساس!»

وعندما وافقه الرجل، تناولا طعامهما في صمت، وبعدها أخذا يتثاءبان، فقال إنجون جو: «إني أحتاج إلى قسط من النوم! هذه نوبتك في الحراسة.»

جثم إنجون جو على الأعشاب، وعلى الفور غطّ في نومه. وبعدها بوقت يسير، أخذ الحارس يتمايل نعاسًا أيضًا؛ إذ أخذت رأسه تميل لأسفل أكثر فأكثر، وسرعان ما غرقا كلاهما في سبات عميق. فتنفس الصبيَّان الصعداء ثم همس توم: «والآن حانت فرصتنا، هيا!»

قال هاك بصوت مرتعش: «لا أستطيع، سأموت إذا استيقظا من النوم.»

نهض توم بتؤدة، لكن ما إن وطأت قدماه الأرض اللعينة حتى أصدرت صريرًا عاليًا جدًّا، فذاب قلب توم كالشمع وكاد يموت رعبًا. تجمد الصبيَّان في مكانهما وهما يعدَّان اللحظات. وأخيرًا لاحظا أن الشمس قد بدأت تشرق.

وفجأة توقف إنجون جو عن الغطيط ونهض ونظر حوله.

قال إنجون باسمًا، وهو يكِز الرجل الآخر بقدمه: «أحارس أنت؟!»

ازدرد الرجل ريقه وقال: «يا إلهي! هل رحتُ في النوم؟»

ضحك إنجون جو.

– «لقد حان وقت التحرك يا شريكي، فماذا سنفعل ببقية المال المسروق الذي معنا؟»

– «لا أعرف، أرى أن نتركه هاهنا كما كنا نفعل دائمًا، فلن نحمل معنا ستمائة دولار فضيّ!»

وافق إنجون على رأيه، فقال: «حسنًا، لكننا سندفنها هذه المرة على عمق كبير.»

قال شريك إنجون: «رأي سديد.» ثم سار عبر الحجرة وانحنى على ركبتيه والتقط أحد الأحجار الثقيلة الموجودة بجانب المدفأة المنهارة، ثم أخرج كيس نقود وأخذ عشرين أو ثلاثين دولارًا لنفسه، ومثلهم لإنجون جو. وعندئذ أعطى الكيس لإنجون الذي كان جاثيًا في ذلك الحين على ركبتيه في أحد الأركان، يحفر باستخدام سكينه مسنون النصلين الذي يشبه الحربة.

نسي توم وهاك كل مخاوفهما لدى رؤيتهما العملات البراقة؛ فيا للحظ! إن ستمائة دولار لمبلغ كافٍ لأن يثري ستة صبْيان! وها هو ذا كنز سهل المنال للغاية؛ فأنت تعرف أين ستحفر بالضبط!

اصطدم سكين إنجون بشيء ما.

سأل شريكه: «ما هذا؟»

– «إنه لوح خشبي قديم، لا، إنه صندوق، أنا متيقن من هذا. انتظر!» ثم مدّ إنجون يده في الصندوق ثم أخرجها.

– «إنه مال يا رجل!»

تفقد الرجلان حفنة العملات الذهبية، وكان الصبيَّان من فوقهما يشعران بالبهجة بالمثل.

قال إنجون: «سننتهي من هذا الأمر سريعًا. فثمة معول صدئ قديم على الجانب الآخر من المدفأة، لقد رأيتُه منذ دقيقة.»

ثم ركض، وأحضر معول وجاروف الصبيين، وفي غضون لحظات معدودة أخرجا من الأرض صندوقًا صغيرًا مصنوعًا من الحديد، لكن تعلوه طبقة من الصدأ بسبب وجوده هناك كل هذه السنين. نظر الرجلان إلى الكنز في صمت، وهما لا يكادان يصدِّقان ما يريانه بأعينهما.

قال إنجون جو: «يا صديقي، يوجد هنا الآلاف من الدولارات.»

أضاف شريك إنجون: «لطالما كانت هناك أقاويل بأن عصابة توم موريل العجوز المضطلعة بسرقة البنوك قد اعتادت أن تأتي بالقرب من هنا في الصيف.»

قال إنجون: «أعرف هذا. ويبدو أن هذه العصابة هي من تركت هذا الكنز، أظن ذلك.»

– والآن أنت لست في حاجة إلى القيام بتلك المهمة الأخيرة.»

عبس وجه إنجون جو.

قال إنجون: «أنت لا تعرفني!» ثم امتلأت عينا إنجون جو بالقسوة والفتور واستأنف كلامه قائلًا: «لا يتعلق الأمر بالسرقة؛ فالأمر شخصي ويتعلق بالثأر! وسأحتاج إلى مساعدتك في هذا، وعندما ننتهي منه نرحل إلى تكساس.»

رد الرجل: «ليكن كقولك.» ثم سأله: «وماذا سنفعل بالصندوق؟ هل ندفنه مرة أخرى؟»

وعندما قال إنجون: «نعم.» كاد توم وهاك ألا يستطيعا أن يُخفيا غبطتهما، لكن بعدها بثوان معدودة صرخ إنجون جو: «لا!» فعبس وجها الصبيين، لكن سرعان ما تحول عبوس وجهيهما إلى رعب، عندما قال إنجون: «إن ثمة تراب جديد على هذا المعول! ما سبب وجود هذا المعول، وهذا الجاروف هنا؟ وعليهما تراب جديد، ليس إلا! من الذين أتوا بهما إلى هنا؟ وإلى أين ذهبوا؟ هل سمعت أحدًا؟ أرأيت مِن أحد؟ أوَتريدنا أن ندفنه مجددًا ويأتوا هم فيروا الأرض منبوشة! أنت غير محق، أنت غير محق؛ سنأخذ هذا الكنز إلى وكري.»

– «بالطبع! كنت أفكر في الشيء نفسه. أتقصد الرقم واحد؟»
– «كلا، بل أقصد الرقم اثنين، تحت الصليب، فالمكان الآخر غير آمن؛ فهو مكشوف للغاية.»

شعر الصبيَّان بالإحباط وتمنيا أن يقول إنجون وشريكه أي كلمة من شأنها أن تدلهما على المخبأ الذي يتحدثان عنه، فماذا قصد إنجون جو عندما ذكر أنه سوف يخفي الكنز «تحت الصليب»؟ تُرى تحت أي صليب؟

وبدلًا من أن يقولا شيئًا من شأنه أن يدلهما، قال الرجل الآخر لإنجون جو: «حسنًا، إن الظلام الآن كافٍ لأن ننطلق، فلنتحرك!»

نهض إنجون وذهب إلى كل نافذة وأطل منها بحذر ليتفقد هل من أحد بالخارج، وعندئذ قال:

«من عساه أن يكون قد أحضر هذه المعدات إلى هنا؟ أتظن أنهم من الممكن أن يكونوا في الطابق العلوي؟»

أطبق إنجون يده على سكينه وسكن في مكانه للحظة ثم اتجه إلى الطابق العلوي، فارتعد توم وهاك حتى أنهما كادا يتوقفان عن التنفس وفكَّرا في الاختباء في الخزانة، لكن قواهما كانت قد فارقتهما وكل ما كان بمقدورهما فعله هو الإنصات إلى صوت وقع الأقدام التي كانت تَصر على درجات السلم، وعندئذ فجأة صدر صوت انهيار ألواح خشبية عندما وطئ إنجون وسط حطام درجات السلم المتهدمة.

فسأله شريكه: «ما الفائدة من كل هذا الآن؟ إنه إذا كان ثمة أحد فوق، فدعه يمكث هناك، فإن هذا لا يعنينا في شيء! سيحل الظلام التام في غضون خمس عشرة دقيقة، وليتتبعنا إذا شاء. في وجهة نظري: أيًّا كان من أحضر هذا المعول وهذا الجاروف إلى هنا، فإنه لمحنا وظن أننا أشباح أو أرواح شريرة أو ما شابهها وهرب وأراهن على أنه لا يزال يركض مبتعدًا حتى الآن.»

تبرَّم إنجون قليلًا قبل أن يوافق على رأي شريكه، ثم جهز الرجلان أمتعتهما بما فيها الصندوق الثمين، وتسلَّلا في هدوء إلى خارج المنزل حيث الغسق الآخذ في الإظلام.

الفصل الحادي عشر

محاكمة إنجون جو

أرَّقت مغامرة اليوم توم في أحلامه. لقد كاد يضع يده أربع مرات على الكنز الثمين، وفي كل مرة كان يفلت من يده. وعندما استيقظ توم من نومه قرر أن ما وقع له ربما يكون مجرد حُلم. ولَمَّا انتهى من تناول فطوره، ذهب للعثور على هاك فين. فإذا كان ما وقع له هو مجرد حُلم، فإنه سيعرف ذلك من هاك بالتأكيد.

وجدَ توم صديقه جالسًا في أحد القوارب، مدليًا قدميه في الماء، وعليه سيماء الحزن الشديد.

قال توم في بهجة: «مرحبًا يا هاك!»

– «مرحبًا بك!»

ثم ساد الصمت لدقيقة.

– «أرأيتَ يا توم، لو كنا قد تركنا المعدات التي تسببتْ في افتضاح أمرنا عند الشجرة الميتة، لكُنا قد حصلنا على المال. أليس هذا أمرًا مريعًا!»

– «إذن لم يكن هذا حُلمًا، لم يكن حُلمًا! لقد تمنيت أن يكون حُلمًا!»

– «ما هذا الذي لم يكن حُلمًا؟»

– «كل ما جرى البارحة، لقد خيل إلي أنه حُلم.»

– «حُلم! لو لم يتحطم السلَّم لانقض علينا إنجون، وعندها كنت ستعرف أنه ليس بحُلم. لقد كنت أحلم بهذا الشرير إنجون جو طوال الليل. عليه اللعنة!»

– «لا يا هاك، لا تلعنه، وإنما اكتشف مكانه. لا بد أن نعثر عليه ونتبعه إلى «رقم اثنين».»

– «كنت أفكر في هذا اللغز، ولكنني لم أستطع حله، ما رأيك أنت؟»

– «لا أعرف، فهذا أمر محير للغاية. اسمع يا هاك، ربما يكون رقم منزل.»

– «لا يا توم، هذا ليس رقم منزل، فالمنازل غير مرقمة في هذه البلدة الصغيرة.»

– «انتظر الآن، دعني أفكر قليلًا. إنه رقم غرفة ما في حانة.»

– «آه، هاهنا يكمن الخداع! لا يوجد سوى حانتين. بمقدورنا أن نكتشف الأمر سريعًا.»

وبعد مرور نصف ساعة، كان الصبيَّان قد مرا على كلتا الحانتين؛ فكان يشغل الحجرة رقم ٢ في الحانة الأرقى محامٍ شابٌّ منذ فترة طويلة، أما في النزل الأدنى فقد كان الغموض يشوب الغرفة رقم ٢. فقد ذكر ابن صاحب الحانة الصغير أنها تُغلق طوال الوقت ولا يدخلها أحد أو يخرج منها سوى في الليل.

توصل الصبيَّان إلى أنه لا بد من أن تكون هذه الغرفة غايتهما. وسرعان ما توصل توم إلى خطة؛ وهي أن يستحوذا على المفاتيح التي تصل إليها أيديهما وينتظرا حلول الظلام حتى يجرباها، وعليه فسيصير الكنز في قبضتيهما بسهولة.

وفي تلك الليلة، أخذا يحومان حول المكان حتى تجاوزت الساعة التاسعة؛ أحدهما يراقب الممر، والآخر يراقب باب الحانة، فلم يدخلها أو يغادرها أحد يشبه الإسباني.

وهكذا كان الحال أيضًا يومي الثلاثاء والأربعاء، لكنَّ ليلة الخميس كانت ليلة واعدة؛ فقد تسلل توم من منزله وأخذ معه مصباح العمة بولي الصغير ومنشفة طويلة لكي يغطي بها المصباح. وقبل منتصف الليل بساعة أُطفئت كل أنوار الحانة ولم يدخل مخلوق إلى الممر أو يخرج منه، وكان الظلام الدامس يغشى كل الأرجاء، ولم يكن يعكر صفو السكون التام سوى صوت الرعد الآتي من بعيد.

أضاء توم المصباح ودثره في المنشفة وزحف الصبيَّان في سكون تام في الظلام نحو الحانة ووقف هاك حارسًا، بينما تحسَّس توم الخطى عبر الممر الحالك الظلام. ومرت بضع دقائق على وقوف هاك في حراسته، وتوم مختفٍ. ووجد هاك نفسه ينساق بالتدريج أكثر فأكثر نحو الممر وينتابه الخوف من مختلف الأشياء التي يمكنها أن توقظ الخوف في النفس. وفجأة ظهر وميض ضوء وهلّ عليه توم مذعورًا قائلًا: «اهرب! اهرب! لتنج بحياتك!»

لم يتوقف الصبيَّان عن الجري إلى أن وصلا إلى مخزن حبوب مهجور، وما إن التقط توم أنفاسه حتى قال: «لقد كان الأمر مخيفًا يا هاك! فقد جربت اثنين

من المفاتيح في هدوء قدر استطاعتي! بيد أنهما أصدرا صوتًا مرتفعًا، حتى كادت أنفاسي تنقطع من شدة الرعب، وبدون أن انتبه لما أنا فاعل، قبضت يدي على مقبض الباب الذي انفتح! وإذ لم يكن مغلقًا أصلًا فقد وجدت نفسي أتدحرج للداخل، ووقعت المنشفة، ويا لهول ما رأيت!»

– «ماذا، ماذا رأيت يا توم؟»

– «كدت أقع في براثن إنجون جو!»

– «مستحيل!»

– «بلى، لقد كان مستلقيًا هناك، غارقًا في النوم على ما يبدو على الأرض وباسطًا ذارعيه.»

– «وهل استيقظ؟»

– «لا، لم يتزحزح قط.»

– «قل لي يا توم، هل رأيت ذلك الصندوق؟»

– «لم أنتظر لأتلفت حولي يا هاك، لم أر الصندوق ولا الصليب ولا أي شيء سوى فنجان صغير على الأرض إلى جانب إنجون.»

فكَّر توم للحظة ثم استأنف كلامه:

«انتبه يا هاك، يجدر بنا ألَّا نقوم بشيء آخر إلى أن نتأكد من أن إنجون جو ليس هناك بالداخل، فهذا أمر مرعب للغاية. وإذا دأبنا على المراقبة كل ليلة، فسوف نتيقن من رؤيته خارجًا في وقت من الأوقات، وعندئذ سنخطف هذا الصندوق في لمح البصر.»

واتفقا على أن هاك سوف يقوم بمراقبة الحانة كل يوم، بينما يقوم توم بعملية خطف الصندوق عندما يحين الوقت المناسب. وهكذا مضى الصبيَّان وكلٌّ يحلم بالثراء الذي سرعان ما سيكون من نصيبهما.

الفصل الثاني عشر

هاك البطل

كان أول خبر تناهى إلى مسامع توم صباح يوم الجمعة خبرًا سعيدًا؛ فأخيرًا عادت بيكي ثاتشر وعائلتها إلى المدينة بعد عطلتهم الصيفية. ورأى توم بيكي في الحال وأمضيا وقتًا طيبًا في اللعب مع رفقائهما في المدرسة. ثم أقنعت بيكي والدتَها باختيار اليوم التالي لقضاء نزهة مدرسية طال الوعد بها، كما طال إرجاؤها.

وفي اليوم التالي كان يتجمهر خارج منزل القاضي ثاتشر مجموعة صغار مشاكسين واستُؤجرت سفينة بخارية قديمة من أجل الرحلة البحرية التي كانت ستستغرق يومًا كاملًا، وشق حشد الأطفال السعداء طريقهم نحو السفينة وهم يحملون السلال الممتلئة بالطعام.

وعندما كان الأطفال يستعدون للرحيل، قالت السيدة ثاتشر لبيكي: «إنك لن تعودي إلاَّ في وقت متأخر للغاية، لذلك فمن الأفضل أن تُمضي الليل عند إحدى الفتيات القاطنات بالقرب من مرسى السفينة.»

– «سأمكث عند سوزي هاربر يا أمي.»

– «حذارِ من أن يصدر عنكِ أي شغب.»

وفي الوقت الذي كان توم يسرع فيه نحو السفينة مع بيكي وبقية الأطفال، إذا به يفكر في هاك؛ إذ ربما يأتيه في عين هذه الليلة ويبعث إليه بإشارة مفادها أن حجرة إنجون جو فارغة. لكن إذا كانت الإشارة لم تأته في الليلة المنصرمة، فما يزيد من احتمال وصولها في عين هذه الليلة؟

وعلى بعد ثلاثة أميال جنوبيّ المدينة، توقفت السفينة عند خليج تكسوه الأشجار. وتجمهر جمع الأطفال الفرحين على الشاطئ، وبعد قليل دوت أصداء الصيحات والضحكات في كل أرجاء فضاء الغابة الفسيح والمرتفعات الصخرية.

واستكشف الأطفال المتنزهون كل سبل التسلية واللهو قبل أن يكدوا في العودة إلى المعسكر ولديهم نهم شديد إلى الطعام، وبعد الالتفاف في مأدبة عظيمة حان الوقت لاكتشاف كهف ماكدوجال.

أُحضرت الشموع وركض كل الصغار إلى أعلى التل الذي كان مدخل الكهف يقع على جانبه، وكان باب الكهف العملاق المصنوع من خشب السنديان مفتوحًا على مصراعيه. ويا له من مشهد يحبس الأنفاس عندما يقف المرء في الظلام الدامس عند فم الكهف وينظر للخارج، فيرى أشعة الشمس تسطع على الوادي الأخضر.

وبمرور الوقت أخذ موكب الأطفال يتدفق إلى المهبط المنحدر بالممر الرئيسي للكهف، وكان صف أضواء الشموع المتراقصة التي يحملها الأطفال يُظهر جدران الكهف الصخرية الشامخة التي كانت تكتنفهم. لم يكن عرض الممر يتجاوز ثلاثة أمتار، وعلى جدرانه شقوق صخرية أضيق على مسافات متقاربة. وكان يشاع أنه يمكن للمرء أن يجول أيامًا وليالي عبر غياهب هذه الشقوق المعقدة والمتداخلة دون أن يعثر لها على نهاية أبدًا.

وبعد قليل أخذ بعض الأطفال يتسللون بعيدًا عن المجموعة الكبيرة ويلعبون لعبة الاستغماية في المناطق المكتشفة من الكهف، ثم يعودون في مجموعات صغيرة متفرقة إلى فم الكهف لاهثين وضاحكين وملطخين بقطرات الشموع من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين وموحلين في الطين مبتهجين بمغامراتهم. وقد رجعوا في الوقت المناسب؛ إذ كانت أجراس العودة قد دقت لتوِّها وشرعت السفينة البخارية في العودة إلى المدينة.

وبعد مرور ساعة، كان هاك قد بدأ لتوه في نوبة حراسته عندما رأى أضواء قارب تتلألأ، وقد تجاوزت المرسى؛ فتعجب: أي قارب هذا، ولماذا لم يتوقف بالمرسى! ولكنه لم يطل الإمعان في الأمر؛ إذ كان الليل آخذًا في الظلام، وهو لديه مهمة ليقوم بها.

حانت الساعة العاشرة وتوقفت الضوضاء الناجمة عن حركة العربات وبدأت الأضواء المنتشرة تخفت أيضًا والشوارع تخلو من الناس أكثر فأكثر. وبحلول الساعة الحادية عشرة كانت الظلمة تغزو كل الأرجاء وانتظر هاك فيما بدا دهرًا سحيقًا متضجرًا دون أن يقع أي شيء جدير بالذكر. وتساءل هاك: هل هناك فائدة بحق يمكن جنيها من وراء المكوث أكثر من ذلك؟ لماذا لا يفقد الأمل ويعود أدراجه؟

وعندئذ تناهى إلى مسامعه صوت مرتفع. فقد انغلق باب الممر بهدوء واندفع هاك نحو ركن محل حلاقة مغلق، وفي اللحظة التالية مر رجلان إلى جانبه مباشرة وبدا أن أحدهما يحمل شيئًا ما تحت ذراعه: إنه الصندوق! لقد كانا ينقلان الكنز! قدح هاك زناد فكره بسرعة؛ فالرجلان سيرحلان بالكنز ولن يمكن العثور عليهما مجددًا، إذن لا بد من أن يتبعهما بنفسه. خرج هاك من مخبئه، وتسلل وراءهما مثل الهرة عاري القدمين وتركهما يتقدمانه بمسافة بعيدة حتى لا يلاحظاه.

سار الرجلان بمحاذاة شارع ريفر، وانعطفا يسارًا بعد ثلاثة مبانٍ، وسارا في الدرب المؤدي إلى تل كاردفيل، ومرا بكوخ الويلزي العجوز الذي يقع في منتصف الطريق نحو قمة التل، وواصلا صعودهما التل. فكر هاك في نفسه: عظيم! سيدفنان الكنز في المحجر القديم. بيد أن الرجلين لم يتوقفا بالمحجر، بل تجاوزاه إلى قمة التل وغاصا في الممر الضيق الذي يتوسط أغصان شجر السماق الطويلة. واقترب هاك منهما قليلًا إذ صار الظلام حالك السواد؛ فلم تعُد تتسنى لهما رؤيته. هرول هاك مقتربًا منهما ثم توقف. أنصت هاك لكنه لم يسمع شيئًا سوى ضربات قلبه، فأوشك على الاستسلام مرة أخرى، وذلك عندما أخذ أحد الرجلين يتنحنح على بعد متر وربع المتر منه فحسب!

وقف هاك مكانه وهو يرتجف بشدة. وقد عرف أين هو بالضبط؛ إنه على بعد متر ونصف المتر من الطريق المؤدي إلى منزل الأرملة دوجلاس. وإذا دفنا الكنز هناك، فسوف يتعسر العثور عليه.

صدر صوت خافت للغاية، وهو صوت إنجون الذي قال: «انظر، ثمة أضواء، ربما لديها صحبة.»

– «لا أستطيع أن أرى شيئًا مما تتحدث عنه.»

سرعان ما أدرك هاك أن صوت الرجل الآخر هو صوت شريك إنجون جو، فارتجف بشدة؛ فهذا هو «العمل الثأري» الذي تحدثا عنه من قبل! وتذكر هاك أن زوج الأرملة دوجلاس كان يشغل منصب قاضي الصلح، وأنه ألقى القبض على إنجون جو عددًا من المرات لا حصر لها. وها هو إنجون جو وشريكه الآن يحيكان المكائد للثأر من أرملته عن طريق سرقتها، أو ما هو أدهى من ذلك!

حبس هاك أنفاسه وتراجع بتؤدة خطوة واحدة للوراء، تلتها خطوات أخرى، وبعدما تراجع بالدرجة الكافية أخذ يركض بسرعة البرق هابطًا التل إلى أن وصل

إلى كوخ الويلزي العجوز، وأخذ هاك يقرع الباب بعنف وعلى الفور أطلت من النافذة رءوس الكهل وابنيه العتاة.

– «ما كل هذه الجلبة؟ من الطارق؟ وماذا تريد؟»

– «أنا هاكلبيري فين، هيا أسرع، أدخلني!»

– «أحقًّا أنت هاكلبيري فين! إن هذا الاسم لا يستحق أن تُفتح له الأبواب، لكن دعوه يدخل، ولنر ما المشكلة!»

كانت الكلمات الأولى التي نطق بها هاك لدى دخوله هي: «أرجوكم لا تقولوا قط إني أخبرتكم، لكن الأرملة دوجلاس كانت تحسن معاملتي أحيانًا، وأريد أن أبوح بأمر، لكني لن أبوح به ما لم تعدوني أنكم لن تأتوا على ذكر اسمي أبدًا.»

قال الرجل الطاعن في العمر متعجبًا: «أقسم بالقديس جورج أن هناك أمرًا خطيرًا يعرفه هذا الصبي وإلا ما صار مرتبكًا هكذا! بح بما لديك أيها الصبي ولن يفشي الأمر أحد البتة.»

بعد ذلك بثلاث دقائق كان الشيخ وابناه متسلحين تسلحًا عظيمًا، وفي طريقهم إلى أعلى التل، إلى جانب ممر شجر السماق. تركهم هاك هناك واختبأ وراء صخرة ضخمة، وبعد لحظات قليلة من الصمت المشوب بالتوتر، سمع الصبي الصغير فجأة صوت طلقات نارية وصرخة عظيمة.

لم ينتظر هاك ليرى ما الذي وقع، وإنما أطلق ساقيه للريح وهبط التل على جناح السرعة.

الفصل الثالث عشر

حبيسان في الكهف

ما إن بزغ فجر الأحد حتى أسرع هاك مرة أخرى إلى أعلى التل، وقرع برفق باب الويلزي العجوز مرة أخرى.

قال صوت أجش: «من الطارق؟»

– «من فضلك دعني أدخل، أنا هاك فين.»

– «إن هذا لهو الاسم الذي يستحق أن يُفتح له هذا الباب ليل نهار، أيها الصبي! مرحبًا بك.»

سرعان ما فُتح الباب، وأَجلس الشيخُ هاك على مقعد وثير ثم أخذ يعد فطورًا يليق بالبطل هاك.

– «تمنيت أنا وولديَّ أن تعود إلى هنا الليلة الماضية!»

– «كنت مذعورًا جدًّا، فغادرت مسرعًا عندما أُطلقت النيران وكنت أخشى العودة إلى هنا قبل طلوع النهار.»

– «يبدو أنك اجتزت وقتًا عصيبًا الليلة المنصرمة يا ولدي المسكين، هاهنا فراش لك يمكنك أن تستريح عليه بعد أن تنتهي من تناول فطورك. لقد كنا على وشك القبض على هذين الوغدين الليلة المنصرمة لولا أنني عطست، ما أسوأ حظنا! فبعدها مباشرة ركض هذان الوغدان، فأطلقنا النيران عليهما، لكنهما اختفيا في لمح البصر. وقد جمع المأمور القليل من القوات، ولا يزال البحث عنهما جاريًا في الغابة. أعتقد أنك لم تتمكن من رؤية ملامحهما في الظلام، أليس كذلك؟»

– «كلا، لقد رأيتهما بوسط المدينة أولًا، ثم تتبعتهما. أحدهما هو الإسباني الذي عرَّج على المدينة مرة أو مرتين، والآخر هو ...»

– «كفى يا ولدي، فأنت تعرف الرجلين! انصرف مع ولدي لتخبر المأمور!»

وما إن همّ ابنا الشيخ بمغادرة الحجرة حتى هبّ هاك من مكانه.

– «أرجوكما لا تخبرا أحدًا قط بأنني أنا الذي وشيت بهما. أتوسل إليكما!»

– «لا بد من أن يُرجع الفضل لك.»

– «لا، لا! أرجوك ألا تخبر أحدًا!»

– «لن يخبرا أحدًا، ولا أنا أيضًا. لكن لماذا تكره أن يُعرف الأمر؟»

لم يعلل هاك الأمر إلا بخوفه الشديد، ووعده الشيخ مرة أخرى بتكتم الأمر.

– «ولماذا تتبعتهما؟ هل بدا عليهما ما يريبك؟»

صمت هاك لفترة وجيزة ليفكر فيما يقول.

– «حسنًا، كما ترى، لم أستطع أن أخلد إلى النوم الليلة المنصرمة ورأيت هذين الرجلين بجانب الحانة، وكان أحدهما يحمل شيئًا بدا مسلوبًا ...» ومضى هاك في حديثه متسرعًا يختلق قصة يروي فيها كيف قرر أن يتبع الرجلين — اللذين ميز أن أحدهما هو الرجل الإسباني — إلى التل، ومنه إلى منزل الأرملة دوجلاس.

– «وعندئذ قال الرجل الإسباني ...»

– «ماذا؟ أيتكلم الإسباني؟ إنه لا يسمع ولا يتكلم!»

تدارك هاك الخطأ الذي وقع فيه لتوِّه وقام بعدة محاولات واهية ليستر خطأه، ولكن الشيخ قاطعه قائلًا: «لا تخف يا ولدي، لن أدع أحد يمس شعرة واحدة من رأسك تحت أي ظرف من الظروف. إنك تعرف شيئًا بخصوص ذلك الإسباني وتريد أن تكتمه. والآن لتثق بي يا ولدي، أخبرني ببقية الأمر، وأنا لن أخونك قط.»

نظر هاك في عيني الشيخ الصادقتين للحظة، ثم همس في أذنه: «إنه ليس بإسباني، إنه إنجون جو!»

كاد الويلزي يهب من مكانه ثم قال بعد لحظة: «لقد اتضح كل شيء الآن، لطالما كان إنجون جو يضمر الشر في قلبه لزوج الأرملة الذي كان يزج به في السجن دائمًا.»

جلس هاك لتناول الفطور؛ إذ كان يشعر بالضعف والوهن. وكان شديد الاستياء من نفسه بسبب توتره وعدم تمكنه من كتمان المعلومات التي لديه بشأن إنجون جو. وراح الويلزي العجوز يروي بقية القصة، وكيف ترك الوغدان وراءهما مجموعة من أدوات السطو عندما لاذا بالفرار. ولم يكن هناك ذكر للكنز مما يعني، كما ظن هاك، أنه لا بد من أن يكون الكنز لا يزال هناك في الغرفة في

الحانة، وتصور هاك أنه ربما يُلقى القبض على إنجون جو وصديقه في هذا اليوم نفسه ويُزج بهما في السجن، وعندئذ يتسنى له هو وتوم الاستيلاء على الكنز في هذه الليلة بدون عناء يُذكر.

بكر جميع قاطني مدينة سانت بيترسبيرج إلى الكنيسة في هذا الصباح بعدما انتشرت أنباء عن حادثة البارحة، وشاع القول بأنه لا يوجد أثر لهذين الوغدين. وعندما انتهت الموعظة، قصدت زوجة القاضي ثاتشر السيدة هاربر، التي كانت تسير عبر ممر الكنيسة إلى جانب الجموع، وقالت لها: «هل تنوي صغيرتي بيكي أن تنام كل النهار؟ لقد توقعت أن تكون منهكة بشدة فحسب!»

– «صغيرتك بيكي؟»

– «أجل، ألم تبت عندكِ الليلة المنصرمة؟»

– «ماذا؟ لا.»

شحب وجه السيدة ثاتشر التي سقطت على أحد المقاعد، وعندئذ مرت بهما العمة بولي، وقالت: «صباح الخير يا سيدة ثاتشر، صباح الخير يا سيدة هاربر، أظن أن صغيري توم لا بد من أنه مكث في منزلكِ الليلة المنصرمة، أو عندكِ يا سيدة هاربر. وها هو الآن خائف من المجيء إلى الكنيسة؛ لا بد أن أحاسبه على هذا.»

هزت السيدة ثاتشر رأسها بطريقة واهنة، وشحب وجهها مرة أخرى.

وردت السيدة هاربر التي بدأ يساورها القلق: «لم يمكث عندنا.»

سرعان ما انتشر الخبر بين الحضور، ولكن لم يستطع أحد أن يتذكر آخر مرة رأى فيها توم أو بيكي، كما لم يلحظ أحد من الأطفال ما إذا كانا على متن العبارة أثناء رحلة عودتها إلى المدينة، وأخيرًا أعلن فتى صغير عما في صدره من خوف من أن يكونا لا يزالان هناك في الكهف! فغابت السيدة ثاتشر عن الوعي وأخذت العمة بولي تصرخ وتهز يديها بقوة.

وفي غضون دقائق معدودات، كان الرجال يمتطون الجياد وأُمر بخروج القارب، وفي أقل من نصف ساعة كان هناك مائتا رجل يتدفقون نحو النهر قاصدين الكهف.

وأمضت المدينة الليل بأكمله في ترقب وانتظار لوصول أي أخبار، ولكن طلع الصبح أخيرًا دون العثور على أي أثر للطفلين أيضًا. وأخيرًا وفي وقت مبكر من

بعد ظهر الاثنين بدأ بعض الرجال المنهكين في العودة إلى القرية. وفي إحدى البقاع النائية بداخل الكهف التي تبعد عن المناطق التي عادة ما يزورها السائحون، عُثر على آثار اسمي بيكي وتوم مكتوبين على جدار صخري إلى جانب أثر لدخان الشموع. وكان هذا أقصى ما توصل إليه الباحثون بشأن الطفلين المفقودين.

وكان توم وبيكي هناك بالفعل تائهين لا أمل لهما في الغياهب الداخلية للكهف. فبعد أن انتهيا من لعب الاستغماية، هاما على وجهيهما بلا اكتراث في غياهب الكهف يشاهدان الأسماء والتواريخ المكتوبة على الجدران الصخرية. وعندئذ هبطا إلى الأغوار الخفية لأحد الدهاليز، وكان توم يترك علامات بدخان الشموع طوال الطريق حتى لا يضلا. وفي آخر المطاف وصلا إلى مغارة كبيرة للغاية، يحتشد تحت سقفها جماعات كبيرة من الخفافيش، آلاف منها في كل جماعة. فأرعبت أضواء الشموع الخفافيش واندفعت أفواجًا بالمئات تصدر أصواتًا حادةً وتتدافع في هياج شديد لدى رؤية الضوء الساطع. وفي خضم رعدتهما، أمسك توم بيد بيكي وأسرعا نحو أول ممر رآه توم. وطاردت الخفافيش توم وبيكي مسافة لا بأس بها، فواصل توم وبيكي ركضهما، وكانا ينعطفان إلى كل ممر جديد يقابلهما إلى أن تخلصا أخيرًا من المخلوقات المرعبة. وعندما توقفا ليتحققا من المكان الذي وصلا إليه أخيرًا، وجدا أنفسهما على شاطئ بحيرة كبيرة واقعة تحت الأرض، فتملك الرعب الشديد من توم.

سألت بيكي في أمل: «هل يمكنك أن تعثر على المخرج؟»

أجاب توم في حذر: «أظن أنه في استطاعتي العثور عليه. وقد لاحظ أن الخفافيش قد أخمدت شمعة بيكي»، فقال: «لكن إذا أطفأت الخفافيش كلتا الشمعتين فسنصبح في ورطة كبيرة، لنجرب مخرجًا آخر حتى لا نضطر إلى خوض غمار هذا الطريق مرة أخرى.»

وبدآ السير في ممر آخر، وقد التزما الصمت لفترة طويلة، وأخذا يحدقان في كل فتحة جديدة يمران بها بحثًا عن أي أمارات قد تبدو مألوفة لديهما. وفي كل مرة كان يستطلع فيها توم أحد الممرات كان يزداد إحباطًا أكثر فأكثر.

صرخت بيكي مذعورةً، وهي تتشبث بذراع توم بعد أن سارا لبعض الوقت: «لقد ضاعت كل المعالم!» ثم أخذت تتوسل إليه قائلة: «لا تخف من الخفافيش يا توم، دعنا نعود من هذا الطريق!»

وافق توم على كلامها، بيد أنه لم يعد الآن قادرًا على العثور على طريق الخفافيش الذي جاءا منه؛ فكل منعطف انعطفا فيه كان المنعطف الخطأ. وأخذ القلق يستبد ببيكي أكثر فأكثر إلى أن انفجر توم أخيرًا، وقال: «لقد كنت أحمق يا بيكي لأنني لم أضع أي علامات ونحن نهرب من الخفافيش، والآن لا يمكنني العثور على طريق العودة.»

خارت قوة بيكي وسقطت على الأرض وراحت في نوبة من الصراخ الهيستيري ارتعدت لها فرائص توم. ثم أخذا يبحثان حولهما قليلًا ويتتبعان صوت سيل قطرات المياه المتجهة نحو جدول المياه، وفي النهاية سقط الطفلان من شدة التعب وفرط الرعب، وغلبهما النعاس بمرور الوقت.

وبعدما استيقظا من نومهما، اقترحت بيكي أن يواصلا التحرك مرة أخرى.

وساد صمت طويل قبل أن يتكلم توم: «لا بد من أن أخبرك بشيء ما يا بيكي؛ إننا يجب أن نمكث هنا حيث يوجد ماء للشرب، علاوة على أن هذه هي آخر قطعة من الشمع لدينا!»

أجهشت بيكي مرة أخرى بالبكاء، وفعل توم كل ما في وسعه لكي يريحها.

قال توم: «لسوف يفتقدوننا، وسيأتون للبحث عنا، سيفعلون ذلك بلا ريب.» لكن السؤال الوحيد الذي كان يشغل توم هو: كم سيستغرق هذا الأمر؟ وفيما أخذت بيكي تبكي، رأى توم الشمعة تذوب بالتدريج، وسرعان ما لم يتبق منها سوى الفتيلة، فأخذا يشاهدان اللهب المرتعش يعلو ويهبط مرارًا إلى أن انطفأ تمامًأ، وبعدها ساد رعب الظلام الدامس!

ومرت الساعات ببطء وراح الصغيران في النوم واستيقظا مرة أخرى. وسرعان ما بدآ يشعران بالجوع الشديد، وبدأ توم يتساءل: ترى ما المدة التي بمقدورهما أن يعيشاها بدون طعام، فقطعت بيكي حبل أفكاره: «أنصت! هل سمعت هذا؟»

حبس الصغيران أنفاسهما وأنصتا، فسمعا صوتًا أشبه بصوت صراخ واهٍ للغاية آتٍ من بُعد كبير. وعلى الفور ردّ توم على الصوت وأمسك بيد بيكي وأخذ يتخبط في الظلام متلمسًا طريقه في الممر تجاه الصوت. وسمعا الصوت مرة أخرى، ولكنه كان أقرب هذه المرة على ما يبدو.

صرخ توم: «إنهم قادمون! هيا يا بيكي؛ نحن بخير الآن!»

اقتفى توم أثر الصوت ببطء إلى أن وصلا إلى سردابين صغيرين جانبيين يؤديان إلى أسفل، فأخرج حبل طائرة ورقية من جيبه وربطه في إحدى الصخور، ثم ترك بيكي هناك وبدأ في النزول إلى أحد السردابين.

بعد أن نزل توم عشرين درجة من السلالم بدا له أن السرداب قد انتهى، وانحنى توم على ركبتيه وأخذ يتحسس الرقعة المحيطة بالصخرة الضخمة قدر ما طالت يداه، وفي تلك اللحظة، ظهرت من وراء صخرة تبعد مسافة لا تتجاوز العشرين ياردة يد بشرية تحمل شمعة! تهلل توم بشدة، وعلى الفور تبع هذه اليد جسد صاحبها، إنجون جو!

شُل توم عن الحركة، لكن من حسن حظه أن إنجون جو هو من استدار وولى الأدبار متواريًا بعيدًا عن الأنظار. وقد أيقظ رعب توم كل عضلة في جسده، وشجع نفسه بأنه لو استجمع قواه، وتمكن من الرجوع إلى جدول المياه، فإنه سوف يمكث هناك، وما من شيء سيدفعه إلى المجازفة والالتقاء بإنجون جو مجددًا.

لكن تبين أن الجوع والبرد أقوى من مخاوف توم، خاصة بعد ليلة طويلة أخرى أمضاها بجانب جدول المياه؛ وقد شعر عندئذ بالرغبة في المجازفة والالتقاء بإنجون جو والتصدي لكل المخاوف الأخرى. لكن بيكي كانت ضعيفة للغاية ولم تستطع الذهاب معه، فقبلها في جبينها وأظهر لها أنه واثق من أنه سوف يعثر على مخرج من الكهف ثم أخذ حبل الطائرة الورقية في يده، ومرة أخرى أخذ يتلمس طريقه ونزل عبر أحد السردابين، وهو يشعر بالجوع والإعياء، وتسيطر على ذهنه فكرة الهلاك المحقق.

الفصل الرابع عشر

أخبار مبهجة ومفاجأة عظيمة

جاءت ليلة الثلاثاء والحزن العميق يغشى قرية سان بيترسبيرج؛ فقد استسلم معظم الباحثين وقال الكثيرون إن الطفلين لن يُعثر عليهما أبدًا. ونحو منتصف الليل دوى صوت عظيم صادر عن قرع أجراس القرية وعجت الشوارع بالجموع المهتاجة الذين لم يجدوا الوقت لارتداء ملابسهم بالكامل، وكانوا يصرخون: «لقد عُثر عليهما! لقد عُثر عليهما!»

وانفرجت أسارير العمة بولي، بينما لم تقو السيدة ثاتشر على الكلام؛ لقد ظلت تبكي طوال الوقت، لكن الدموع المنهمرة الآن هي دموع الفرحة. واستلقى توم على أريكة والجميع يتجمهرون حوله، وقد روى القصة: كيف أنه ترك بيكي ومضى وحده للعثور على فتحة للخروج من الكهف، وكيف أنه سار في سردابين قدر ما وصل إليه حبل طائرته، وكيف أنه واصل المسير في سرداب ثالث طويل بطول أقصى امتداد لحبله وأنه كان على وشك النكوص والتراجع حتى لمح بقعة صغيرة بعيدة جدًّا بدت كضوء النهار، وكيف أنه أنزل حبله حينها وأخذ يتلمس طريقه نحو تلك البقعة ثم أخرج رأسه وأكتافه من الفتحة، ورأى نهر الميسيسبي العظيم يجري إلى جانبه!

ولم يكن من السهل التخلص من آثار ثلاثة أيام وليال من المشقة والجوع؛ فقد مكث توم وبيكي طريحي الفراش طوال يومي الأربعاء والخميس. وكاد يوم السبت ينقضي عندما ترك توم فراشه أخيرًا.

ذهب توم من فوره ليرى هاك، الذي كان راقدًا محمومًا حمًّى شديدة، ولكن الأرملة دوجلاس كانت تختصه بالرعاية ولم تسمح لأحد بزيارته.

وبعد مرور أسبوع كان هاك لا يزال طريح الفراش، وعرَّج توم على بيكي ليراها، وقد طلب منه القاضي ثاتشر وبعض الأصحاب أن يتحدث عن مغامراته بداخل الكهف.

قال القاضي عندما فرغ توم من الحديث: «حسنًا، لن يُفقد أحد في هذا الكهف بعد الآن.»

سأله توم: «لماذا؟»

– «لأنني وضعت على بابه الكبير لوحًا حديديًّا كبيرًا منذ أسبوعين وأحكمت غلقه بثلاثة أقفال وأحتفظ بمفاتيحه الآن.»

شحب وجه توم بشدة.

فسأله القاضي: «ما الخطب يا ولدي؟ ليحضر أحد كوب ماء!»

وأُحضر الماء ورُش به وجه توم.

– «والآن ها أنت بخير، أخبرني يا فتى ما الخطب؟»

– «آه، أيها القاضي، إن إنجون جو موجود داخل الكهف!»

بعد ساعات قلائل فُتح باب الكهف ووُجد إنجون جو ممدًّا على الأرض ميتًا ووجهه قريب من فتحة الباب؛ إذ مات المسكين البائس جوعًا.

وبعدما تعافى هاك أخيرًا، تحاور الصبيَّان ولم تكن هناك أخبار عن الكنز بعد. وقد فُتشت حجرة إنجون جو في الحانة، ولكنها وُجدت فارغة.

قال هاك: «أظن أن إنجون جو خلف وراءه أصدقاء قد أخذوا المال. على كل، إنه كان سيصبح لعنة علينا يا توم!»

– «إن هذا المال لم يدخل إلى الحانة من الأصل يا هاك!»

– «ماذا؟»

– «إنه في الكهف!»

وبعد ذلك بفترة وجيزة استعار الصبيَّان قاربًا صغيرًا وسارا به عبر النهر، وعندما أصبحا على بُعد بضعة أميال أسفل الكهف، وجَّه توم هاك كي يدير الدفة نحو الشاطئ.

– «والآن يا هاك، يمكنك من مكاننا هذا أن تجد الفتحة التي خرجت من خلالها من الكهف، فهي قريبة جدًّا، فانظر هل يمكنك العثور عليها؟»

فتش هاك في كل الأرجاء ولكنه لم يعثر على شيء. فسار توم مزهوًّا بنفسه نحو مجموعة من شجيرات السماق، وقال: «ها هي الفتحة! انظر إليها يا هاك،

إنها أضيق فتحة في هذا البلد. لطالما كنت أرجو طيلة عمري أن أصير لصًّا، لكنني ما كنت أعرف أنني سأحصل على شيء مثل هذا. سنتكتم الأمر، ولكننا سنطلع عليه جو هاربر فقط لأننا سنحتاج بلا ريب إلى عصابة، عصابة توم سوير، يبدو هذا الاسم رائعًا! أليس كذلك يا هاك؟»

– «بلى، يبدو كذلك يا توم، ولكن على من سنسطو؟»

– «أظن أنه أي شخص في الغالب.»

– «يا له من أمر رائع يا توم!»

في تلك الأثناء كان الصبيَّان مستعدين للدخول من الفتحة، وكان توم يتولى القيادة، وقد شقا طريقهما نحو الطرف البعيد من النفق، وبعد بضع خطوات أخرى، وصلا إلى جدول المياه حيث كان توم وبيكي يمكثان. فلما رأى توم ذلك المشهد ثانية وتذكر ما اجتازه من رعب هناك، ارتعدت فرائصه، وقد أرى توم هاك قطعة الفتيلة الصغيرة التي تبقت من الشمعة على كتلة من الطين على الجدار، وأخبره كيف أنه هو وبيكي قد شاهدا لهب الشمعة وهو يشتعل على نحو متقطع ثم يخمد. وكان توم وهاك الآن على بعد خطوات معدودة من البقعة التي رأى توم عندها إنجون جو أول مرة.

– «والآن سأريك شيئًا ما يا هاك.»

ثم رفع توم شمعته عاليًا، وقال: «انظر إلى أقصى مدى يمكن أن تصل إليه عيناك، هل ترى هذا؟ على الصخرة الكبيرة هناك، ذلك الشيء المرسوم بدخان الشمعة؟»

– «إنه صليب يا توم!»

– «ألا ترى رقم اثنين تحت الصليب؟ هه؟»

أخرج كل صبي سكينه وبدأ يحفران ولم يتجاوزا في حفرهما عشرة سنتيمترات فحسب حتى اصطدما بشيء خشبي.

بدأ هاك يحفر وينبش، وبعد قليل أخرجا صندوق الكنز.

قال هاك: «أخيرًا حصلنا عليه!» ثم فتح الصندوق وأخذ يغرف بكلتا يديه العملات القديمة ويقول: «نحن أثرياء!»

وبعد أن عبأ الصبيَّان العملات في أكياس، قررا أن يخبئا المال في مخزن الحطب الخاص بالأرملة ثم يدفنانه في غضون الأيام القلائل المقبلة. حمَّل الصبيَّان

العربة التي تجرها اليد، وكانا يمران بكوخ الويلزي العجوز بالضبط عندما قررا أن يستريحا قليلًا. ولمّا همّا بالرحيل، خرج الشيخ بنفسه من الكوخ.

– «يا للحظ! أيها الصبيَّان، لقد جعلتما الجميع ينتظرونكما. هيا أسرعا وسأجر لكما العربة بنفسي. أسرعا، أسرعا!»

أراد توم وهاك أن يعرفا لم كل هذه العجلة، ولكن لم يكن هناك وقت للتساؤل. وبعد فترة وجيزة، صاروا في منزل الأرملة دوجلاس. وكان هناك جمع غفير بانتظارهم يضم كل شخص ذي شأن في القرية. رحبت الأرملة بالصبيين ترحيبًا حارًّا، كما يليق لأي شخص أن يرحب بمثل هذين الكائنين الذين يكسوهما الطين والوحل وشحم الشمع. فاحمر وجه العمة بولي خجلًا، وهي تهز رأسها لتوم.

قال الويلزي العجوز: «لم يكن توم بالمنزل فشعرت باليأس من العثور عليه، لكنني التقيته هو وهاك بمحض المصادفة عند باب منزلي مباشرة، ثم أحضرتهما إلى هنا على عجل.»

قالت الأرملة: «أحسنت يا رجل. والآن اتبعاني أيها الصبيَّان.»

اصطحبتهما المرأة إلى أعلى السلم، وهي تقول: «والآن أيها الصبيَّان، اغتسلا وبدلا ملابسكما، فهاهنا سترتان جديدتان من أجلكما وقمصان وجوارب، وكل شيء، وهما على مقاس هاك، ولكنهما سيناسبان كليكما، هيا ارتدياهما. نحن بانتظاركما، ثم انزلا متى تهندمتما جيدًا.»

الفصل الخامس عشر

المبجل هاك ينضم إلى عصابة توم

نظر هاك حوله في توتر.

– «هذه النافذة ليست شديدة الارتفاع يا توم، لو تمكنا من العثور على حبل، أظن أنه بمقدورنا أن نهرب من هنا.»

– «سحقًا لك! لماذا تريد أن تهرب؟»

– «لا أعتاد هذا النوع من الجموع يا توم، لا يمكنني النزول إلى هناك.»

– «آه يا أخي! ليس هناك ما يدعو للانزعاج، سأعتني بك.»

وبعد دقائق معدودات، كان ضيوف الأرملة يلتفون حول مائدة العشاء واثنا عشر طفلًا حول موائد جانبية صغيرة في الحجرة. وقد أُعدت هذه الوليمة على شرف الويلزي العجوز وابنيه عرفانًا لهم بالجميل من أجل الصنيع البطولي الذي قاموا به. وفي الوقت المناسب وثب الشيخ على قدميه كي يلقي كلمة شكر للأرملة، وبينما كان الجمع ينصتون في حماس شديد، إذا به ينقطع عن الكلام ثم يقول إن هناك شخصًا آخر في هذه الغرفة هو من يستحق الشرف الأعظم.

– «إنه هاك فين.»

دهش الجميع، وسرت في الغرفة موجة من التمتمة والهمس، بل إن الدهشة كانت تعلو وجه الأرملة نفسها؛ إذ علمت لتوها فحسب الدور الذي لعبه هاك في منع إنجون جو من إلحاق الضرر بها.

وبعد العشاء، فجَّرت الأرملة مفاجأة من صنيعها، فلقد أعلنت أنها تنوي أن تجعل هاك يقيم معها وتعلمه، وعندما تستطيع أن تدخر بعض المال فسوف تساعده على أن يبدأ مشروعًا صغيرًا. عندئذ تكلم توم: «هاك ليس في حاجه لهذا، فهو ثري بالفعل.»

لم يستطع الجمع أن يمنعوا أنفسهم من الانفجار ضحكًا لدى سماعهم أن هاك فين ثري؛ الأمر الذي بدا غير مألوف في مسامعهم، فاسترسل توم: «لقد حصل هاك على المال، ربما لا تصدقون، ولكنه حصل على الكثير منه. لا داعي للسخرية، أظن أنه بمقدوري أن أريكم، انتظروا دقيقة فحسب.»

أسرع توم خارج الباب، في حين تملكت الحيرة والارتباك من الجمع.

وبعد دقيقة عاد توم مثقلًا بأكياس النقود، ثم صب كتلة العملات الصفراء على المائدة، وقال: «انظروا، أما قلت لكم؟ إن نصف هذه النقود ملك لهاك والنصف الآخر ملكي أنا!»

لم ينبس أحد ببنت شفة للحظة ثم أخذ الجميع يصيحون طالبين تفسيرًا لهذا، والذي أسرع توم كي يقدمه. وبعد أن انتهى، جرى عد المال، فوُجد أنه يتجاوز الاثني عشر ألف دولار بقليل؛ لقد كان هاك فين ثريًّا!

أودعت الأرملة دوجلاس نقود هاك في البنك، وفعلت العمة بولي الشيء نفسه بنقود توم.

أما بالنسبة للقاضي ثاتشر والد بيكي، فقد اختلفت نظرته لتوم اختلافًا كبيرًا؛ إذ أصبح يكن له عظيم الاحترام؛ فما من صبي عادي يستطيع أن ينقذ ابنته من مثل هذا الكهف، وقد تمنى أن يراه محاميًا ذا شأن أو جنديًّا عظيمًا يومًا ما، بل وإنه كان على يقين من أن توم قد يذهب إلى مدرسة ويست بوينت ويتدرب في أفضل مدرسة قانون في البلاد.

وقد أدت ثروة هاك ورعاية الأرملة دوجلاس له إلى تقديمه للمجتمع، أو بالأحرى أجبرته على ذلك. وتعاظمت معاناته حتى كادت تفوق قدرته على الاحتمال؛ إذ حرص خدم الأرملة على أن يكون مهندمًا ونظيفًا ومصفف الشعر طوال الوقت. وقد اضطر إلى أن يتناول طعامه باستخدام الشوكة والسكين وأن يستخدم مناديل المائدة وكوبًا وطبقًا، وكان عليه أن يستذكر، وأن يذهب إلى الكنيسة، كما كان عليه أن يتحدث على نحو لائق كذلك.

وقد تحمل هاك كل هذه المشقة بشجاعة طيلة ثلاثة أسابيع كاملة، إلى أن فُقد في أحد أيام السبت، وعلى مدار يومين كاملين دأبت الأرملة في البحث عنه في كل الأرجاء، ولكن كل الجهود باءت بالفشل. وفي الصباح الباكر في اليوم الثالث ذهب توم سوير للبحث وسط بعض حظائر الخنازير الفارغة القديمة التي تقع

وراء صوامع الحبوب المهجورة، فعثر على صديقه في إحداها. وكان هاك قد أمضى ليلته هناك، وعندما عثر عليه توم كان قد فرغ لتوه من تناول بعض فتات الطعام المسروقة، وكان يرتدي ثيابه البالية القديمة وينعم بمضغ قطعة من العلك. وأخبره توم عن المتاعب التي تسبب فيها وحثه على الرجوع إلى المنزل.

قال هاك متنهدًا: «لا تقدم على ذكر هذا يا توم، لقد جربت هذا ولم يفلح، أنا لا أصلح لهذا. إن الأرملة عطوف ولطيفة ومحبة، ولكنني لا أستطيع أن أتحمل طريقة العيش هذه؛ فهي تجعلني أستيقظ في الميعاد نفسه كل صباح وتجعلني أغتسل؛ وخدامها يصففون شعري بعنف؛ علاوة على أنها لن تدعني أنام في مخزن الحطب. وقد اضطروني إلى أن أرتدي ملابس لعينة تخنقني وأن أذهب إلى الكنيسة، وأتصبب عرقًا بشدة، فأنا أكره مواعظهم المؤثرة!»

– «جميعنا يضطر إلى أن يفعل هذا يا هاك.»

– «هذا لا يغير شيئًا، فأنا لست كالجميع، ولا يمكنني أن أطيق هذا. اسمع يا توم، إنه ليس بأمر محمود أن تصير غنيًّا؛ فهو لا يجلب معه سوى المزيد والمزيد من القلق، والمزيد والمزيد من المشقة؛ وأن تتمنى طوال الوقت لو كنت ميتًا. خذ أنت يا توم نصيبي من المال، وأعطني بين الفينة والفينة عشر سنتات عندما أكون في أشد الحاجة إليها واذهب إلى المنزل واعتذر للأرملة نيابة عني.»

– «هاك! إنك تعلم أنه ليس بمقدوري أن أفعل هذا، لكنك إذا جربت هذه العيشة فترة أطول قليلًا، فإنها ستروق لك.»

– «لا يا توم، لن أكون ثريًّا. أنا أحب الغابة والنهر وكل هذا، وسأتمسك به أيضًا. سحقًا! فبينما كنا نعد العدة لأن نصير لصوصًا، إذا بهذه الحماقة اللعينة تفسد علينا كل شيء!»

انتهز توم الفرصة، وقال: «اسمع يا هاك، أن أصير غنيًّا لن يثنيني عن عزمي على أن أصير لصًّا.»

– «هل أنت جاد فيما تقول يا توم؟»

– «منتهى الجدية، ولكننا لن نسمح لك يا هاك بالانضمام إلى عصابتنا ما لم تكن جديرًا بالاحترام كما تعلم.»

أجاب هاك: «توم، لطالما كنت ودودًا معي، ولهذا لن تحرمني من الانضمام إلى المجموعة. لن تقوم بذلك يا توم، أليس كذلك؟»

– «أنا لا أريد أن أفعل هذا يا هاك، ولكن ماذا سيقول الناس؟ عصابة توم سوير بكل عظمتها بها شخصيات وضيعة! وسيقصدونك أنت بذلك يا هاك، ولن يروق لك هذا، ولا أنا أحبذ هذا أيضًا.»

صمت هاك لحظة يفكر فيما قاله توم.

– «حسنًا، سأرجع إلى الأرملة لمدة شهر وأرى هل بمقدوري أن أتحمل هذه العيشة، إذا قبلت أن تضمني إلى عصابتك يا توم.»

– «حسنًا يا هاك، اتفقنا!»

– «ومتى سنبدأ؟»

– «في الحال. سنجمع الأولاد، ونستهل العمل الليلة في الأغلب.»

– «وما هذا العمل؟»

– «سيقسم بعضنا لبعض، ونحلف بألا نفشي أسرار العصابة حتى لو قُطعنا إربًا إربًا، ونقاتل كل من يحاول أن يؤذي أي فرد من أفراد العصابة.»

– «هذا عظيم يا توم، عظيم للغاية.»

– «حسنًا، أؤكد لك إنه لكذلك. ولا بد من أن يقسم الجميع عند منتصف الليل في أكثر البقاع التي يمكن العثور عليها وحشة وهجرًا. ولا بد من أن نقسم على نعش، وأن توقع عليه بدمك!»

– «هذا رائع! وهو أفضل مليون مرة من الاشتغال بالقرصنة. وسألتصق بالأرملة إلى أن أموت يا توم، وإذا ما صرت لصًّا عظيمًا، وأصبحت مثار حديث الناس، فأظن أنها ستفتخر بأنها ربتني.»

مضى الصبيَّان في طريقهما يتحدثان عن عصابتهما ويتصوران كل المغامرات الرائعة التي سيقومان بها.